

الفصل الثانى

فضل العلم ومنزلة العلماء فى القرآن

- معنى العلم وأقسامه .
- فضل ومنزلة أهله فى القرآن .
- كل الأنبياء آتاهم الله العلم .
- الصلة بين العلم والإيمان .
- العلم سبيل اليقين .
- العلم شرط لكل منصب قيادى .
- ذم كل أمر قام على غير علم .
- العلم المذموم فى القرآن .

O
B
E
I
K
A
N
.
C
O
M

فضل العلم ومكانة العلماء فى القرآن

● مادة « ع ل م » فى القرآن :

مَنْ قرأ القرآن الكريم وجد مادة « ع ل م » تشيع فى سورة المكية والمدنية على سواء ، بكل مشتقاتها اسماً وفعلاً ومصدرًا ، مئات المرات .

ففاعل « تَعْلَمُونَ » فى خطاب الجمع تكرر ٥٦ مرة ، بالإضافة إلى ٣ مرات بصيغة « فستعلمون » ، و ٩ مرات بصيغة « تَعْلَمُوا » ، و ٨٥ مرة بصيغة « يَعْلَمُونَ » ، و ٧ مرات « يَعْلَمُوا » ، ونحو ٤٧ مرة تكرر فعل « علم » وما يشتق منه وما يتعلق به .

كما تكررت صفة « عليم » مُعْرِفَةً وَمُنْكَرَةً (١٤٠) مرة ، وكلمة « عِلْمٌ » مُعْرِفَةً وَمُنْكَرَةً (٨٠) مرة . وهناك صيغ أخرى تكررت كثيراً أيضاً .

وكل هذا التكرار لهذه المادة ومشتقاتها دليل مؤكد على فضل العلم وبالحق أهميته فى نظر القرآن الكريم .

وفى هذه الفصل من دراستنا هذه نحاول أن نلقى بعض الضوء على معنى العلم وفضله وأهميته ، ومكانة العلماء ، من خلال آيات القرآن العظيم .

* *

● معنى العلم وأقسامه :

قال الإمام الراغب فى « مفردات القرآن » : « العلم : إدراك الشيء بحقيقته ، وذلك ضربان :

أحدهما : إدراك ذات الشيء (وهو الذى يسميه علماء المنطق : التصور) .

والثانى : الحكم على الشئ بوجود شئ هو موجود له ، أو نفى شئ هو منفى عنه (وهو الذى يسميه المناطقة : التصديق ، فهذا يعنى إدراك النسبة ، وذاك إدراك المفرد) .

قال : فالأول : هو المتعدى إلى مفعول واحد ، نحو : ﴿ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾ (١) .

والثانى : المتعدى إلى مفعولين ، نحو قوله : ﴿ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ ﴾ (٢) .

كما قسم الراغب العلم من وجه آخر إلى ضريين : نظرى وعملى .
فالنظرى : ما لا يتطلب شيئاً أكثر من العلم به ، فإذا علم فقد كمل ، مثل العلم بموجودات العالم .

والعملى : ما لا يتم إلا بأن يعمل به كالعلم بالعبادات والأخلاقيات ونحوها .
قال : ومن وجه آخر ، ضربان : عقلى ، وسمعى « (٣) » .
ويعنى بالعقلى : ما كان طريقه العقل والنظر ، وبالسمعى : ما كان طريقه الوحى والنبوة .

وقال بعض أهل اللغة : العلم والمعرفة والشعور كلها بمعنى واحد .
قال الزبيدى فى « تاج العروس » : « والأكثر من المحققين يفرقون بين الكل . والعلم عندهم أعلى الأوصاف ، لأنه الذى أجازوا إطلاقه على الله

(١) الأنفال : ٦٠ (٢) المتحنة : ١٠

(٣) انظر : مفردات القرآن ص ٥٨٠ تحقيق صفوان عدنان داوودى - طبع دار القلم دمشق ، والدار الشامية ، بيروت .

تعالى ، ولم يقولوا : « عارف » - فى الأصح - ولا « شاعر » . والفروق
مذكورة فى مصنفات أهل الاشتقاق .

قال : ووقع خلاف طويل الذيل فى « العلم » . حتى قال جماعة : إنه لا
يُحد (أى لا يُعرّف) لظهوره وكونه من الضروريات . وقيل : لصعوبته
وعسره . وقيل غير ذلك ، مما أورده بما له وما عليه الإمام أبو الحسن اليوسى
فى « قانون العلوم » ، وأشار فى « الدر المصون » إلى أنه إنما يتعدى بالباء ،
لأنه يراعى فيه أحياناً معنى الإحاطة . . قاله شيخنا .

وقال المناوى فى « التوقيف » : العلم هو الاعتقاد الجازم الثابت المطابق
للواقع . . أو هو : صفة توجب تمييزاً لا يحتمل النقيض . . أو هو :
حصول صورة الشئ فى العقل .

وفى « البصائر » : المعرفة إدراك الشئ بتفكر وتدبر لأثره ، وهى أخص
من العلم ، والفرق بينها وبين العلم من وجوه لفظاً ومعنى .

أما اللَّفْظ ففعل المعرفة يقع على مفعول واحد ، وفعل العلم يقتضى
مفعولين ، وإذا وقع على مفعول كان بمعنى المعرفة .

وأما من جهة المعنى فمن وجوه :

أحدها : أن المعرفة تتعلق بذات الشئ ، والعلم يتعلق بأحواله .

والثانى : أن المعرفة - فى الغالب - تكون لما غاب عن القلب بعد إدراكه ،
فإذا أدركه قيل : عرفه ، بخلاف العلم ، فالمعرفة تشبه الذكر النفسى ، وهو
حضور ما كان غائباً عن الذكر ، ولهذا كان ضدها : الإنكار (ومنه :
﴿ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴾ (١) ، ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ
يُنْكِرُونَهَا ﴾ (٢) ، وضد العلم : الجهل .

والثالث : أن المعرفة علم لَعَيْنُ الشَّيْءِ مفصلاً عما سواه ، بخلاف العلم ، فإنه قد يتعلق بالشَّيْءِ مجملاً .

قال : وبينهما فروق أخرى غير ما ذكرنا « (١) » .

وقال الراغب في « المفردات » : « المعرفة والعرفان : إدراك الشَّيْءِ بتفكير وتدبر لأثره ، وهو أخص من العلم ، ويزاذه الإنكار ، ويقال : فلان يعرف الله ، ولا يقال : يعلم الله - متعدياً إلى مفعول واحد - لما كان معرفة البَشَرِ لله هي بتدبر آثاره دون إدراك ذاته . ويقال : الله يعلم كذا ، ولا يقال : يعرف كذا ، لما كانت المعرفة تُستعمل في العلم القاصر المتوصل به بتفكير . وأصله من عرفت « الشَّيْءِ » أى أصبت عَرفه . أى : رائحته . أو من : أصبت عَرفه . أى خدّه . يقال : عرفت كذا . قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا ﴾ (٢) ، ﴿ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴾ (٣) ، ﴿ فَلَعَرَفْتَهُمْ سِسَاهُمْ ﴾ (٤) ، ﴿ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ﴾ (٥) .

فإن : « والعارف في تعارف قوم (أى فى اصطلاحهم) هو المختص بمعرفة الله ، ومعرفة ملكوته ، وحُسن معاملته تعالى » .

وأياً كان حد « العلم » وتعريفه واختلاف المتخصصين فى ذلك ، وفى تحديد الفرق بينه وبين المعرفة ، فالذى يعيننا منه هنا هو المعنى العام الذى ذكره الإمام الراغب ، وهو : إدراك الشَّيْءِ بحقيقته ، فكل إدراك وكشف وتبين للمجهول من أى نوع وفى أى مجال ، حتى تتضح حقيقته بالقدر الممكن للإنسان ، فهو داخل فى معنى « العلم » الذى يتحدث عنه القرآن .

* *

(١) « تاج العروس للزبيدي - مادة « علم » : ٤٠٥ / ٨

(٣) يوسف : ٥٨

(٥) البقرة : ١٤٦

(٢) البقرة : ٨٩

(٤) محمد : ٣٠

• فضل العلم :

لا يُعرف دين مثل الإسلام ، ولا كتاب غير القرآن ، أشاد بالعلم ، وحثَّ عليه ، ورغب في طلبه ، ونوه بمكانة أهله ، وأعلى من قدرهم ، وبين فضل العلم وأثره في الدنيا والآخرة ، وحضَّ على التعلم والتعليم ، ووضع لذلك كله القواعد الحاكمة ، والأحكام الضابطة ، وذلك في مصادر الإسلام الأساسية : القرآن الكريم ، والسنة النبوية .

* *

• دلالة آيات الوحي الأولى :

وحسبنا أن أول آيات نزلت من الوحي الإلهي على قلب رسول الله ﷺ ، أشارت إلى فضل العلم ، حيث أمرت بالقراءة ، وهي مفتاح العلم ، ونوهت بـ « القلم » وهو أداة نقل العلم ، وذلك قوله تعالى : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ (١) .

« إن أول سورة أنزلها الله في كتابه : سورة العلق ، فذكر فيها ما من به على الإنسان من تعليمه ما لم يعلم ، فذكر فيها فضله بتعليمه وتفضيله الإنسان بما علَّمه إياه ، وذلك يدل على شرف التعليم والعلم . فقال تعالى : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * فَافْتَحِ السُّورَةَ بِالْأَمْرِ بِالْقِرَاءَةِ النّاشئة عن العلم ، وذكر خلقه خصوصاً وعموماً ، فقال : ﴿ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴾ ، وخصَّ الإنسان من بين المخلوقات لما أودعه من عجائبه ، وآياته ، الدالة على ربوبيته وقدرته ، وعلمه وحكمته ، وكمال رحمته ، وإنه لا إله غيره ، ولا ربَّ سواه ، وذكر هنا مبدأ خلقه من علق ، لكون العلقه مبدأ الأطوار التي انتقلت إليها النطفة ، فهي مبدأ تعلق التخليق ، ثم أعاد الأمر بالقراءة مخبراً عن نفسه بأنه ﴿ الْأَكْرَمُ ﴾ ، وهو الأفعل من الكرم ، وهو

كثرة الخير ، ولا أحد أولى بذلك منه سبحانه ، فإن الخير كله بيديه ، والخير كله منه ، والنعم كلها هو موليتها ، والكمال كله والمجد كله له ، فهو الأكرم حقاً ، ثم ذكر تعليمه عموماً وخصوصاً ، فقال : ﴿ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴾ ، فهذا يدخل فيه تعليم الملائكة والناس ، ثم ذكر تعليم الإنسان خصوصاً ، فقال : ﴿ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ فاشتملت هذه الكلمات على أنه معطى الموجودات كلها بجميع أقسامها ، فإن الوجود له مراتب أربعة : إحداها : مرتبتها الخارجية المدلول عليها بقوله ﴿ خَلَقَ ﴾ .
المرتبة الثانية : الذهنية المدلول عليها بقوله : ﴿ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ .
المرتبة الثالثة والرابعة : اللفظية والخطية ، فالخطية مصرح بها فى قوله : ﴿ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴾ ، واللفظية من لوازم التعليم بالقلم ، فإن الكتابة فرع النطق ، والنطق فرع التصور .

فاشتملت هذه الكلمات على مراتب الوجود كلها ، وأنه سبحانه هو معطيها بخلقه وتعليمه ، فهو الخالق المعلم ، وكل شئ فى الخارج فبخلقه وجُد ، وكل علم فى الذهن فبتعليمه حصل . وكل لفظ فى اللسان ، أو خط فى البنان ، فبإقداره وخلقه وتعليمه . وهذا من آيات قدرته ، وبراهين حكمته . لا إله إلا هو الرحمن الرحيم . والمقصود أنه سبحانه تعرّف إلى عباده بما علّمهم إياه بحكمته من الخط واللفظ والمعنى ، فكان العلم أحد الأدلة الدالة عليه بل من أعظمها وأظهرها ، وكفى بها شرفاً وفضلاً له « (١) » .

* *

● القَسَمُ بِالْقَلَمِ :

ومن أوائل ما نزل من القرآن قوله تعالى : ﴿ ن ، وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ (٢) ، فأقسم بالقلم ، والقسم به يدل على أهميته ، فإن الله تعالى لا يقسم بشئ إلا ليلفت الأنظار إلى قيمته وخطره .

* *

● لا يستوى عالم وجاهل :

وفى القرآن المكى أيضاً يقول تعالى : ﴿ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (١) .. ففرّق بين أهل العلم ، وأهل الجهل ، فلا يستويان ، بغض النظر عن مضمون العلم ، المهم أنه لا يستوى عالم وجاهل ، كما لا يستوى الأعمى والبصير ، والظلمات والنور ، والظل والحرور ، والأحياء والأموات ، والإنسان والبهيمة ، وأصحاب الجنة وأصحاب النار !

* *

● أهل العلم أهل الخشية من الله :

وفى القرآن المكى نقراً أيضاً : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ (٢) بهذه الصيغة الحاصرة التى أفادها كلمة « إنما » بمعنى أنه لا يخشى الله من عباده إلا العلماء الذين عرفوا عظمتهم ، وقدره حق قدره ، وأهل الخشية هم الذين ذكر الله جزاءهم بقوله : ﴿ جَزَاءُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ، ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴾ (٣) .

وقال ابن مسعود : « كفى بخشية الله علماً ، وكفى بالاغترار بالله جهلاً » !

* *

● شهادة الله والملائكة وأولى العلم بالتوحيد :

وفى القرآن المدنى نقراً قوله تعالى : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (٤) .

يقول الإمام الغزالي : « فانظر كيف بدأ سبحانه وتعالى بنفسه ، وثنى

(٢) فاطر : ٢٨

(١) الزمر : ٩

(٤) آل عمران : ١٨

(٣) البينة : ٨

بالملائكة ، وثَلَّث بأهل العلم ، وناهيك بهذا شرفاً وفضلاً ، وجلاءً ونبلاً » (١) .

وقال العلامة ابن القيم معلّقاً على هذه الآية الكريمة ، وهى قول الله تعالى : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (٢) : « استشهد سبحانه بأولى العلم على أجل مشهود عليه ، وهو توحيده ، فقال : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ﴾ وهذا يدل على فضل العلم وأهله من وجوه .

أحدها : استشهدهم دون غيرهم من البشر .

والثانى : اقتران شهادتهم بشهادته .

والثالث : اقترانها بشهادة ملائكته .

والرابع : أن فى ضمن هذا تزكيتهم وتعديلهم ، فإن الله لا يستشهد من خلقه إلا العدول ، ومنه الأثر المعروف عن النبى ﷺ : « يحمل هذا العلم من كل خلف عدوّه ، ينفون عنه تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين » .

الخامس : أنه وصفهم بكونهم أولى العلم ، وهذا يدل على اختصاصهم به ، وأنهم أهله وأصحابه ، ليس بمستعار لهم .

السادس : أنه سبحانه استشهد بنفسه ، وهو أجلُّ شاهد ، ثم بخيار خلقه ، وهم ملائكته والعلماء من عباده ، ويكفيهم بهذا فضلاً وشرفاً .

السابع : أنه استشهد بهم على أجلِّ مشهود به وأعظمه وأكبره ، وهو شهادة أن لا إله إلا الله . والعظيم القدر إنما يستشهد على الأمر العظيم أكابر الخلق وساداتهم .

(١) « إحياء علوم الدين : ٤ / ١ ، ٥ - طبعة دار المعرفة ، بيروت .

(٢) آل عمران : ١٨

الثامن : أنه سبحانه جعل شهادتهم حُجَّةً على المنكرين ، فهم بمنزلة أدلته وآياته وبراهينه الدالة على توحيده .

التاسع : أنه سبحانه أفرد الفعل المتضمن لهذه الشهادة الصادرة منه ومن ملائكته ومنهم ، ولم يعطف شهادتهم بفعل آخر غير شهادته ، وهذا يدل على شدة ارتباط شهادتهم بشهادته ، فكأنه سبحانه شهد لنفسه بالتوحيد على ألسنتهم وأنطقهم بهذه الشهادة ، فكان هو الشاهد بها لنفسه إقامة وإنطاقاً وتعليماً ، وهم الشاهدون بها له إقراراً واعترافاً وتصديقاً وإيماناً .

العاشر : أنه سبحانه جعلهم مؤدِّين لحقه عند عباده بهذه الشهادة ، فإذا أدَّوها فقد أدَّوا الحق المشهود به ، فثبت الحق المشهود به ، فوجب على الخلق الإقرار به ، وكان ذلك غاية سعادتهم في معاشهم ومعادهم . وكل مَنْ ناله الهدى بشهادتهم وأقرَّ بهذا الحق بسبب شهادتهم ، فلهم من الأجر مثل أجره . وهذا فضل عظيم لا يدرى قدره إلا الله ، وكذلك كل مَنْ شهد بها عن شهادتهم ، فلهم من الأجر مثل أجره أيضاً .
فهذه عشرة أوجه في هذه الآية « (١) » .



● تفضيل آدم على الملائكة بالعلم :

ومما نبّه عليه القرآن ، ولم يُذكر في كتاب ديني غيره : أن الله تعالى فضّل آدم أبا البشر ، وجعله في الأرض خليفة ، وقدمه على الملائكة المتفرغين لعبادة الله تعالى ، وذلك بما خصّه به من العلم ، الذي تفوّق به على الملائكة في الاختبار الذي عقده الله تعالى بينه وبينهم . يقول ابن القيم في بيان الوجه التاسع والعشرين : « أنه سبحانه لما أخبر ملائكته بأنه يريد أن يجعل في الأرض خليفة قالوا له : ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ »

(١) « مفتاح دار السعادة » : ٤٨/١ ، ٤٩

وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ، قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ * وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا ، إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ ... إلى آخر قصة آدم . وأمر الملائكة بالسجود لآدم فأبى إبليس فلعنه وأخرجه من السماء .

قال ابن القيم : « وبيان فضل العلم من هذه القصة من وجوه . أحدها : أنه سبحانه ردَّ على الملائكة لما سأله كيف يجعل في الأرض من هم أطوع له منه فقال : ﴿ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ، فأجاب سؤالهم بأنه يعلم من بواطن الأمور وحقائقها ما لا يعلمونه ، وهو العليم الحكيم ، فظهر من هذا الخليفة من خيار خلقه ورُسله وأنبيائه وصالحى عبادته والشهداء والصديقين والعلماء وطبقات أهل العلم والإيمان ، مَنْ هو خير من الملائكة ، وظهر من إبليس مَنْ هو شر العالمين ، فأخرج سبحانه هذا وهذا ، والملائكة لم يكن لها علم لا بهذا ولا بهذا ، ولا بما فى خلق آدم وإسكانه الأرض من الحكم الباهرة .

الثانى : أنه سبحانه لما أراد إظهار تفضيل آدم وتمييزه وفضله ، ميزه عليهم بالعلم ، فعلمه الأسماء كلها ، ثم عرضهم على الملائكة فقال : ﴿ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ . جاء فى التفسير أنهم قالوا : لن يخلق ربنا خلقاً هو أكرم عليه منا ! فظنوا أنهم خير وأفضل من الخليفة الذى يجعله الله فى الأرض ، فلما امتحنهم بعلم ما علمه لهذا الخليفة ، أقروا بالعجز وجهل ما لم يعلموه . فقالوا : ﴿ سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا ، إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ ، فحيثُ أظهر لهم فضل آدم ما خصَّ به من العلم فقال : ﴿ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ ، فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ ﴾ (٢) أَقْرُوا لَهُ بِالْفَضْلِ .

الثالث : أنه سبحانه لما أن عرفهم فضل آدم بالعلم وعجزهم عن معرفة

ما علمه قال لهم : ﴿ أَلَمْ أَقُلْ لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ (١) ، فعرفهم سبحانه نفسه بالعلم ، وأنه أحاط علماً بظاهرهم وباطنهم ، وبغيب السموات والأرض ، فتعرف إليهم بصفة العلم ، وعرفهم فضل نبيه وكليمه بالعلم ، وعجزهم عما آتاه آدم من العلم ، وكفى بهذا شرفاً للعلم .

الرابع : أنه سبحانه جعل في آدم من صفات الكمال ما كان به أفضل من غيره من المخلوقات ، وأراد سبحانه أن يظهر لملائكته فضله وشرفه ، فأظهر لهم أحسن ما فيه ، وهو علمه ، فدل على أن العلم أشرف ما في الإنسان ، وأن فضله وشرفه إنما هو بالعلم ، ونظير هذا ما فعله بنبيه يوسف عليه السلام ، لما أراد إظهار فضله وشرفه على أهل زمانه كلهم ، أظهر للملك وأهل مصر من علمه بتأويل رؤياه ما عجز عنه علماء التعبير ، فحينئذ قدمه ومكّنه ، وسلم إليه خزائن الأرض ، وكان قبل ذلك قد حبسه على ما رآه من حُسن وجهه وجمال صورته ، ولما ظهر له حُسن صورة علمه وجمال معرفته أطلقه من الحبس ، ومكّنه في الأرض . فدلّ على أن صورة العلم عند بنى آدم أبهى وأحسن من الصورة الحسية ولو كانت أجمل صورة (٢) .

* *

● كل الأنبياء آتاهم الله العلم :

وفى عدد من قصص الأنبياء والمؤمنين فى القرآن يتبين لنا قيمة العلم وفضله عند الله ، وعند الناس ، وأثره فى الدين وفى الدنيا معاً ، وكل الأنبياء والرسل فى القرآن آتاهم الله العلم ، وإن رفع الله بعضهم درجات .

* نوح عليه السلام :

فى قصة نوح نراه يجادل قومه بعلم وحُجَّة قوية ، فيفحمهم ، ولا يجدون

(٢) مفتاح دار السعادة : ٥٢/١ ، ٥٣

(١) البقرة : ٣٣

أمامهم ما يجيبون به ، أو يردون به على حججه ، فماذا كان موقفهم ؟ قالوا : ﴿ يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَكُثِّرْتَ جَدَّالَنَا فَأَتْنَا بِمَا تَعَدُّنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿ (١) .

✱

✱ إبراهيم الخليل :

وفى قصة إبراهيم يقول الله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ نُرَى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴾ ... إلى أن يقول : ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ ، نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ ، إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ (٢) .

ويحكي القرآن حوار له ، وقوله له : ﴿ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴾ (٣) .

وهذا يدل على أن الجاهل يجب أن يتبع العالم ، فالعالم هو القائد ، والجاهل هو المقود ، ولو كان هو الأكبر سناً ، أو مقاماً ، بل لو كان هو الأب الوالد ، ينبغي أن يتبع ابنه لعلمه .

✱

✱ لوط :

وفى قصة لوط قال تعالى : ﴿ وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ ﴾ (٤) . وقد رأينا ثمار حكمته وعلمه فى حوار مع قومه ، الذى ذُكر فى سورة الشعراء ، وسورة هود ، وغيرهما من السور .

✱

(٢) الأنعام : ٧٥ - ٨٣

(١) هود : ٣٢ - ٣٣

(٤) الأنبياء : ٧٤

(٣) مريم : ٤٣

* يوسف الصديق :

وفى قصة يوسف يقول الله تعالى فى شأنه : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ، وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ (١) ، ﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ﴾ (٢) ، وقد بشره أبوه من قبل حين قص عليه رؤياه وهو صبي ، فقال : ﴿ وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ ﴾ (٣) .

وقد كان علم التأويل - تأويل الرؤى والأحلام - هو السبب الذى هياه الله لإنقاذ يوسف من السجن ، وإظهار براءته من كل تهمة ، وتقريب الملك له ، وجعله على خزائن الأرض ، كما طلب يوسف نفسه ، حين قال له الملك : ﴿ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ ، إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْكُمْ ﴿ (٤) .

فذكر له الصفتين الأساسيتين المطلوبتين من كل من يتولى منصباً ذا بال ، إدارياً أو مالياً أو سياسياً ، وهما : الحفظ والعلم ، والحفظ مرده إلى الأمانة ومراقبة الله ، والعلم مرده إلى الخبرة والكفاية فى أداء العمل بإتقان واقتدار .

*

* موسى كليم الله :

رفى قصة موسى يقول تعالى : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ، وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٥) فزاد هنا كلمة « واستوى » ولم يقل ذلك فى شأن يوسف .

يقول ابن القيم فى ذلك : ولما كان الذى آتاه موسى من ذلك أمراً عظيماً ،

(٣) يوسف : ٦

(٢) يوسف : ٢١

(١) يوسف : ٢٢

(٥) القصص : ١٤

(٤) يوسف : ٥٤ ، ٥٥

خصه به على غيره ، ولا يثبت له إلا الأقوياء أولو العزم ، هياه له بعد أن بلغ أشده واستوى ، يعنى : تم وكملت قوته (١) .

وقد تجلّى أثر ما آتاه الله من الحكمة والعلم فى كل مراحل حياته ، وكل جوانب حياته عليه السلام .

كما نرى ذلك واضحاً فى حوارهِ مع ربه الجليل سبحانه : ﴿ وَمَا تَلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى ﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى ﴾ (٢) .

فهو يطيل الجواب مع ربه تلذذاً بحلاوة المناجاة ، ثم يغلبه أدب العبودية فيطوى الكلام ويقول : ﴿ وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى ﴾ .

ثم يدعو ربه بعد أن أمره بالذهاب إلى فرعون الطاغية ، دعاءً جامعاً لما يحتاج إليه الداعية فى موقفه : ﴿ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴾ وَأَحْلِلْ عُقْدَةً مِّنْ لِّسَانِي ﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴾ وَأَجْعَلْ لِّي وَزيراً مِّنْ أَهْلِي ﴾ هَارُونَ أَخِي ﴾ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ﴾ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ﴾ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً ﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً ﴾ إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيراً ﴾ (٣) .

ونرى ذلك واضحاً فى حوارهِ مع فرعون : ﴿ قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى ﴾ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴾ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى ﴾ قَالَ عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ ، لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى ﴾ (٤) .

لما نظر إلى جواب موسى عن ربه عز وجل ، كيف وصفه فى هذه الجملة القصيرة بأجل وأدل ما يوصف به الله سبحانه . فهو الذى أعطى كل شىء فى هذا الكون ما به تمام خلقه وكمال وجوده ، ثم أعطاه الهداية التى يصل بها إلى غايته التى خلُق لها . سواء أكان هذا الشىء من عالم الإنسان أم من عالم الحيوان أم من عالم النبات أم من عالم الجمادات ، وسواء أكان من عالم الأرض أم من عوالم الأفلاك ، من العقلاء أم غير العقلاء .

(٢) طه : ١٧ ، ١٨

(١) مفتاح دار السعادة : ٥٧/١

(٤) طه : ٤٩ - ٥٢

(٣) طه : ٢٥ - ٣٥

ثم انظر جوابه عن القرون الأولى ، فلم يتورط فيما لا سبيل إلى علمه من أنباء القرون الخوالي ، ووكّل علمها إلى مَنْ لا تخفى عليه خافية : ﴿ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ ، لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى ﴾ (١) .

وفى سورة الشعراء حوار أطول من هذا مع فرعون ، تبين به فضل ما آتاه الله موسى من علم وحكمة : ﴿ أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ * قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ * وَفَعَلْتَ فَعَلْتِكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ * قَالَ فَعَلْتُهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ * فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ * وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَى أَنْ عَبْدَتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ * قَالَ فَرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ * قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ، إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ * قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمْعُونَ * قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ * قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ * قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا ، إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ * قَالَ لئن اتَّخَذْتُ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ * قَالَ أَوْ لَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ * قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * فَأُلْقِيَ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ * وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ * قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴾ (٢) .

✱

✱ داود وابنه سليمان :

وفى قصة داود وابنه سليمان نجد حديثاً عن العلم فى أكثر من موضع .
ففى أول قصة داود فى سورة البقرة يقول تعالى : ﴿ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ ﴾ (٣) .

(٣) البقرة : ٢٥١

(٢) الشعراء : ١٧ - ٣٤

(١) طه : ٥٢

وفى سورة (ص) يقول تعالى : ﴿ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ ، إِنَّهُ أَوَّابٌ *
إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ * وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً ،
كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ * وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَأَتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخُطَابَ ﴾ (١) .

وفى سورة الأنبياء يقول تعالى : ﴿ وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي
الْحَرَّةِ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ * فَفَهَّمْنَاهَا
سُلَيْمَانَ ، وَكَلَّا أَتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ (٢) . .

فخصَّ سليمان بفهم القضية ، وإدراك الصواب فيها ، وأثنى على كل منهما
بما آتاه الله من حكم وعلم .

وفى سورة النمل يقول تبارك وتعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا ،
وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ * وَوَرَّثَ
سُلَيْمَانُ دَاوُدَ ، وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ،
إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴾ (٣) .

ووراثته سليمان لداود هنا إنما أُريد بها وراثته فى علمه ، فقد جاء فى
الحديث : « إن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً ، وإنما ورثوا العلم ، فمن
أخذه أخذ بحظ وافر » (٤) .

وفى قصة سليمان نجد أثر العلم مرة أخرى فى نقل عرش ملكة سبأ من
اليمن حيث نقلها إلى الشام حيث يقيم سليمان : ﴿ قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ
يَأْتِنِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ * قَالَ عَفْرَيْتُ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ
قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَّقَامِكَ ، وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ * قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ
مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ، فَلَمَّا رَأَاهُ مُسْتَقَرًّا عِنْدَهُ
قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي ﴾ (٥) .

(١) سورة ص : ١٧ - ٢٠ (٢) الأنبياء : ٧٨ ، ٧٩ (٣) النمل : ١٥ - ١٦

(٤) جزء من حديث مشهور رواه أحمد وأصحاب السنن وابن حبان عن أبى الدرداء ،
كما فى صحيح الجامع الصغير (٦٢٩٧) . (٥) النمل : ٣٨ - ٤٠

وهنا نجد العفريت الجنى عرض على سليمان أن يأتيه بعرش الملكة قبل أن يقوم من مجلس الحكم ، وعرض ﴿ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ ﴾ عليه أن يأتيه به قبل أن تغمض عينه ، أى فى لمح البصر ، وكان هذا - كما ذكر القرآن - بوساطة علم عنده من الكتاب ، فلم يوصف بشيء أكثر من هذا ، ولم يذكر لنا القرآن أنه ملك أو عفريت ، فدل على أنه إنسى ، وأنه بوساطة العلم فاق الجنى ، فالإنسان بوسائله العلمية يفعل ما لا تفعله الجان ، كما نرى فى عصرنا ، كيف فاق الإنسان بكثير ما صنعه الجن لسليمان : ﴿ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَّحَارِبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ ﴾ (١) .

✽

✽ الخضر صاحب موسى :

وقال تعالى فى شأن الخضر صاحب موسى ، الذى لقيه مع فتاه : ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾ (٢) . فأثنى عليه بما آتاه سبحانه من رحمة من عنده ، وما علّمه من علم من لدنه .

✽

✽ المسيح عيسى ابن مريم :

وقال تعالى فى شأن عيسى : ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا ، وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴾ (٣) . فهذا يقوله تعالى فى معرض الامتنان عليه وتذكيره بنعمه .

(٣) المائدة : ١١٠

(٢) الكهف : ٦٥

(١) سبأ : ١٣

وقال فى مقام تبشِير أُمّه به عند ولادته لتقر به عينها : ﴿ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴾ (١) .

*

* محمد خاتم الرُّسُل :

وقال تعالى فى خطاب خاتم رُسُلِهِ مُحَمَّد ﷺ : ﴿ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ ، وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ (٢) .

وقال تعالى له : ﴿ وَإِنَّكَ لَتُلْقَى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾ (٣) .
﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ، مَا كُنْتَ تَدْرَى مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ، وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (٤) .
﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ (٥) .

وفى أربع آيات من كتاب الله (فى البقرة ، وآل عمران ، والجمعة) (٦)
بيَّنت أن من وظيفته عليه الصلاة والسلام : تلاوة آيات الله ، وتزكية الأمة ، وتعليمهم الكتاب والحكمة ، وزادت آية منها : ﴿ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾ (٧) .

* *

(١) آل عمران : ٤٨ (٢) النساء : ١١٣ (٣) النمل : ٦

(٤) الشورى : ٥٢ (٥) النحل : ٨٩

(٦) البقرة : ١٢٩ ، ١٥١ ، وآل عمران : ١٦٤ ، والجمعة : ٢ (٧) البقرة : ١٥١

● تنويه القرآن بفضائل أولى العلم :

وينوه القرآن بشأن أهل العلم ، ويُعبر عنهم بـ ﴿ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ﴾
ويُضفى عليهم جملة من الفضائل والمزايا الفكرية والإيمانية والأخلاقية كانوا
وأحق بها وأهلها .

فهؤلاء الذين أُوتوا العلم هم الذين ينكشف لهم الحق الذى أنزله الله على
محمد ، فيروونه واضحاً هادياً إلى صراط الله ، يقول تعالى : ﴿ وَيَرَى الَّذِينَ
أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِى أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ
الْحَمِيدِ ﴾ (١) .

ومثله قوله تعالى : ﴿ وَلَيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ
فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ ، وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادٍ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ
مُسْتَقِيمٍ ﴾ (٢) .

فهنا نجد العلم أثمر الإيمان ، فثمر الإيمان الإحبات لله تعالى .

وهؤلاء الذين أُوتوا العلم هم الذين يتجاوبون مع القرآن العظيم ، فتخضع
له قلوبهم ، وتدمع له أعينهم ، وتخر له جباههم ، فهم بعلمهم يعرفون قدره ،
ويتزولونه منزلة من أنفسهم . يقول تعالى : ﴿ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لَتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى
مُكْتٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا * قُلْ آمَنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا ، إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ
مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا * وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ
كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا * وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾ (٣) .

والقرآن فى صدور هؤلاء من أهل العلم ليس مجرد كلام محفوظ ، بل
هو آيات بينات ، دالة أوضح الدلالة على عظمة من تكلم به ، ودالة كذلك
على صدق من أرسل به ، ودالة كذلك على الحق الذى جاء به ، يقول تعالى

(٣) الإسراء : ١٠٦ - ١٠٩

(٢) الحج : ٥٤

(١) سبأ : ٦

لرسوله : ﴿ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ ، فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ، وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ ، وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ ﴾ * وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ ، إِذَا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ * بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ، وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ ﴾ (١) .

وأولو العلم المحمودون في القرآن هم الذين لا يخدعهم المظهر عن الجوهر ، ولا الكم عن الكيف ، ولا القشور عن اللُّبّاب ، ولا المادة عن الروح ، ولهذا نراهم حين خرج قارون ذو الكنوز الطائلة على قومه في زينته الباهرة ، وموكبه الحافل ، وأبهته الساحرة ، وقال الذين يريدون الحياة الدنيا : ﴿ يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ ! (٢) كان موقف هؤلاء من أهل العلم الحقيقي موقفاً مخالفاً تماماً ، لم يغرهم هذا البريق ، ولم يطعمهم هذا السراب فيحسبوه ماءً ، بل سجّل لهم القرآن هذا الموقف الرائع : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ ﴾ (٣) .

وأولو العلم هؤلاء هم الذين قرنهم القرآن بأهل الإيمان ، ورفعهم جميعاً درجات عنده . يقول تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ ، وَإِذَا قِيلَ انشُرُوا فَانْشُرُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ (٤) .

قيل في تفسيرها : يرفع الله المؤمن العالم على المؤمن غير العالم . ورفعته

(٢) القصص : ٧٩

(١) العنكبوت : ٤٧ - ١٩

(٤) المجادلة : ١١

(٣) القصص : ٨٠

الدرجات تدل على الفضل ، إذ المراد به كثرة الثواب عند الله ، وبها ترتفع الدرجات . ورفعتها تشمل الحسية والمعنوية ، فى الدنيا والآخرة . وفى الدنيا بعلو المنزلة وحسن الصيت ، وفى الآخرة بعلو المنزلة فى الجنة .

وفى صحيح مسلم عن نافع بن عبد الحارث الخزاعى - وكان عامل عمر على مكة - أنه لقيه بعسفان فقال له : مَنْ استخلفت ؟ فقال : استخلفتُ ابن أبنى مولى لنا . فقال عمر : استخلفتُ مولى ؟ قال : إنه قارئٌ لكتاب الله ، عالم بالفرائض . فقال عمر : أما إن نبيكم قد قال : « وإن الله يرفع بهذا الكتاب أقواماً ، ويضع به آخرين » (١) .

* *

● العلم حياة ونور :

اعتبر القرآن العلم حياةً ونوراً ، والجهل موتاً وظلمة ، فى آيات كثيرة ، وضرب لذلك الأمثال ، ومن المعلوم : أن الشر كله سببه عدم الحياة والنور ، وأن الخير كله سببه النور والحياة . فإن النور يكشف عن حقائق الأشياء ويبين مراتبها ، والحياة : هى المصححة لصفات الكمال ، الموجبة لتسديد الأقوال والأعمال ، كما يقول المحقق ابن القيم ، فكل ما تصرف من الحياة فهو خير كله ، كالحياء الذى سببه كمال حياة القلب ، وضده الوقاحة والفُحش ، وسببه موت القلب وعدم نفرتة من القبيح ، وكالحياء الذى هو المطر الذى به حياة كل شئ . قال تعالى : ﴿ أَوْ مَنْ كَانَ مِيتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشَى بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا ﴾ (٢) ، كان ميتاً بالجهل قلبه ، فأحياه بالعلم ، وجعل له من الإيمان نوراً يمشى به فى الناس .

(١) فتح البارى : ٤٤١/١ ، طبعة السلفية . (٢) الأنعام : ١٢٢

وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كَفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ لئلا يعلم أهل الكتاب ألا يقدرون على شيءٍ من فضل الله وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم ﴿ (١) .

وقال تعالى : ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ، أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ، هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (٢) .

وقال تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا ، مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ، وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (٣) . فأخبر أنه روح تحصل به الحياة ، ونور يحصل به الإضاءة والإشراق ، فجمع بين الأصلين : الحياة والنور .

وقال تعالى : ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿ (٤) .

وقال تعالى : ﴿ فَاٰمِنُوْا بِاللّٰهِ وَرَسُوْلِهِ الَّذِىْ اَنْزَلْنَا ، وَاللّٰهُ بِمَا تَعْمَلُوْنَ خَبِيْرٌ ﴾ (٥) .

وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا ﴾ (٦) .

(٣) الشورى : ٥٢

(٢) البقرة : ٢٥٧

(١) الحديد : ٢٨ ، ٢٩

(٦) النساء : ١٧٤

(٥) التغابن : ٨

(٤) المائدة : ١٥ ، ١٦

وقال تعالى : ﴿ قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا * رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ (١) .

وقال تعالى : ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ، نُورٌ عَلَى نُورٍ ، يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ ، وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ ، وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (٢) فضرب سبحانه مثلاً لنوره الذي قذفه في قلب المؤمن - كما قال أبي بن كعب رضى الله عنه - مثل نوره في قلب عبده المؤمن وهو نور القرآن والإيمان ، الذي أعطاه إياه ، كما قال في آخر الآية : ﴿ نُورٌ عَلَى نُورٍ ﴾ ؛ يعنى نور الإيمان على نور القرآن ، كما قال بعض السلف : يكاد المؤمن ينطق بالحكمة وإن لم يسمع فيها بالأثر ، فإذا سمع فيها بالأثر كان نوراً على نور .

وقد جمع الله سبحانه بين ذكر هذين النورين ، وهما : الكتاب والإيمان ، في غير موضع من كتابه ، كقوله : ﴿ مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ (٣) ، وقوله تعالى : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ (٤) ، ففضل الله الإيمان ، ورحمته القرآن . وقوله تعالى : ﴿ أَوْ مَنْ كَانَ مِثْلًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مِثْلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا ﴾ (٥) ، وقد تقدمت هذه الآيات . وقال في آية النور : ﴿ نُورٌ عَلَى نُورٍ ﴾ (٦) ؛ وهو نور الإيمان على نور القرآن . وفي حديث النوَّاس

(٣) الشورى : ٥٢

(٢) النور : ٣٥

(١) الطلاق : ١٠ ، ١١

(٦) النور : ٣٥

(٥) الأنعام : ١٢٢

(٤) يونس : ٥٨

اس سمعان رضى الله عنه عن النبي ﷺ : « أن الله ضرب مثلاً صراطاً مستقيماً ، وعلى كنفى الصراط داران لهما أبواب مفتحة ، على الأبواب ستور وداع يدعو على الصراط ، وداع يدعو فوقه : ﴿ وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (١) ، والأبواب التى على كنفى الصراط حدود الله ، فلا يقع أحد فى حدود الله حتى يكشف الستر ، والذى يدعو من فوقه واعظ ربه » رواه الترمذى وهذا لفظه . والإمام أحمد ولفظه : « والداعى على رأس الصراط كتاب الله ، والداعى فوق الصراط واعظ الله فى قلب كل مؤمن » ، فذكر الأصلين وهما داعى القرآن وداعى الإيمان .

وقال حذيفة : حدثنا رسول الله ﷺ : « إن الأمانة نزلت فى جذر قلوب الرجال ثم نزل القرآن فعملوا من الإيمان ثم علموا من القرآن » .

وفى الصحيحين من حديث أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم : « مثل المؤمن الذى يقرأ القرآن كمثل الأترجة ؛ طعمها طيب وريحها طيب ، ومثل المؤمن الذى لا يقرأ القرآن كمثل التمرة ؛ طعمها طيب ولا ريح لها ، ومثل المنافق الذى يقرأ القرآن كالريحانة ؛ ريحها طيب وطعمها مر ، ومثل المنافق الذى لا يقرأ القرآن كمثل الخنظلة ؛ طعمها مر ولا ريح لها » . . فجعل الناس أربعة أقسام : أهل الإيمان والقرآن وهم خيار الناس . الثانى : أهل الإيمان الذين لا يقرءون القرآن وهم دونهم ، فهؤلاء هم السعداء ، والأشقياء قسمان ، أحدهما : من أوتى قرآنًا بلا إيمان فهو منافق . والثانى : من لا أوتى قرآنًا ولا إيماناً .

والمقصود أن القرآن والإيمان هما نور يجعله الله فى قلب من يشاء من عباده ، وأنهما أصل كل خير فى الدنيا والآخرة ، وعلمهما أجل العلوم وأفضلها ، بل لا علم فى الحقيقة ينفع صاحبه إلا علمهما : ﴿ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (٢) ، (٣) .

* *

(٢) البقرة : ٢١٣

(١) يونس : ٢٥

(٣) مفتاح دار السعادة : ٥٣/٢ - ٥٥

العلم والإيمان

العلم فى نظر القرآن ليس مناقضاً للإيمان ، ولا عدواً له ، بل هو يسير مع الإيمان جنباً إلى جنب ، ولهذا عطف القرآن الإيمان على العلم فى قوله : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ ﴾ (١) . وقال تعالى : ﴿ يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ (٢) ، فعطف هنا أهل العلم على أهل الإيمان . وقد قال تعالى : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ (٣) ، فأمر أن تكون القراءة باسم الله الخالق ، فهى قراءة مؤمنة ، وتعبير آخر : علم فى حضانة الإيمان .

بل يرى القرآن أن العلم دليل الإيمان ، فهو يهذى إليه ويدل عليه ، فالإنسان فى القرآن يعلم فىؤمن ، أى يقتنع عقله ، فىؤمن قلبه ، يقول تعالى : ﴿ وَلَيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ ﴾ (٤) .

هكذا رتب القرآن هذه الثلاثة - العلم ، الإيمان ، الإخبات - حين عطفها بعضها على بعض بحرف « الفاء » التى تفيد الترتيب والتعقيب ، كما يقول علماء العربية . فالمرء - بعقله وفكره - يعلم أن القرآن هو الحق المنزل من عند الله ، فيترب على هذا العلم أن يؤمن به ، ويترب على هذا الإيمان أن يخبت له قلبه . فالمعرفة تسبق الشعور ، والشعور يسبق الحركة ، سواء أكانت حركة القلب أم حركة الجسم .

* *

(٢) المجادلة : ١١

(٤) الحج : ٥٤

(١) الروم : ٥٦

(٣) العلق : ١

● العلم الحقيقي يهـدى إلى الإيمان :

العلم الحقيقي فى نظر القرآن يدفع إلى الإيمان ، ويشد أزره ، يقول تعالى : ﴿ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِى أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ (١) .

ويقول تعالى عن القرآن : ﴿ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا ﴾ * قُلْ آمَنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا ، إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا * وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا * وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَكُونُ وِزِيرَهُمْ خُشوعًا ﴾ (٢) .

* *

● العلم عندنا دين ، والدين عندنا علم :

فليس بين العلم والإيمان - أو بين العلم والدين - صراع ، كالذى عرفته أوروبا فيما سـمى عندهم « القرون الوسطى » ، وإنما هنا إخاء بينهما ، فالعلم يؤيد الإيمان ، والإيمان يبارك العلم ، فإن الحق لا يناقض الحق . وكما أقول أبداً : إن العلم عندنا دين ، والدين عندنا علم .

أما أن العلم عندنا دين ، فإن كتاب ربنا ، وسُنَّة نبينا ، يدعوانا إلى العلم ، ويعتبرانه عبادة وفريضة ، سواء أكان علم دين أم علم دنيا ، علماً مصدره الوحي ، أم علماً مصدره الكون ، فالوحي أمر الله ، والكون خلق الله ، ولا تعارض بين خلقه وأمره سبحانه : ﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ، تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٣) .

وأما أن الدين عندنا علم ، فلأنه لا يقوم على التقليد واتباع الأجداد والآباء ، أو السادة والكبراء ، بل يحارب القرآن - بأبلغ الأساليب - التقليد الأعمى والتبعية المطلقة للآخرين ، وينادى كل ذى عقيدة أن يبني عقيدته على البرهان

(٣) الأعراف : ٥٤

(٢) الإسراء : ١٠٦ - ١٠٩

(١) سبأ : ٦

واليقين ، لا على الظن والتخمين : ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (١) ، ﴿ أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً ، قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ﴾ (٢) ، ﴿ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٣) ، ﴿ قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا ، إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴾ (٤) .

والعلم المقترن بالإيمان يبنى ولا يهدم - ويحيى ولا يميت ، ولهذا نجد سليمان عليه السلام حين جرى إليه بعرش ملكة سبأ - عن طريق العلم - قبل أن يرتد إليه طرفه ، لم يقل ما قال الإنسان المغرور : ﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي ﴾ (٥) ، أو إنما جاءني به علمائي وخبرائي ، بل قال ما ذكره القرآن : ﴿ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ، وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ، وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌ كَرِيمٌ ﴾ (٦) .

ومثل ذلك : موقف ذى القرنين ، حين بنى سدَّه العظيم مستعيناً بالله أولاً ، ثم بقوة الشعب ثانياً ﴿ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ ﴾ (٧) ، فلما استكمل البناء ، قال بتواضع المؤمنين : ﴿ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي ، فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ ، وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴾ (٨) .

وهذا بخلاف العلم الذى وصل إليه الغرب اليوم ، فهو - لانقطاع صلته بالإيمان - غدا معول هدم ، وأداة تهديد للبشرية .

صحيح أن الإنسان استطاع بوساطة العلم أن يصعد إلى القمر ، ويجلب منه أتربة وصخوراً وآثاراً ، يحللها ويدرسها ، ولكنه رغم ذلك لم يستطع أن يوفر لنفسه السعادة والسكينة على ظهر الأرض .

* *

(٣) الأنعام : ١٤٣

(٢) الأنبياء : ٢٤

(١) البقرة : ١١١

(٦) النمل : ٤٠

(٥) القصص : ٧٨

(٤) الأنعام : ١٤٨

(٨) الكهف : ٩٨

(٧) الكهف : ٩٥

● أثر العلم فى الاهتداء والفضيلة :

وإذا كان شأن العلم أنه يهذى إلى الإيمان ، ويرشد إلى الحق ، ويدل على الصراط المستقيم ، كما ذكر القرآن الكريم عن ﴿ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ﴾ فى أكثر من آية من آياته ، فلماذا نرى من الناس من يعرف الحق ولا يتبعه ؟ ومن يعرف الإيمان ولكنه لا يؤمن ، ولا ينضم إلى قافلة المؤمنين ؟ .
تُرى ما الموانع التى تمنع بعض الناس أن يؤمنوا بعد ما علموا ، وأن يسيروا فى ركب الحق بعد ما انكشف عنه قناعه ، وأضاء لهم نوره وشعاعه ؟

* *

● اختلاف سقراط وأرسطو :

هنا نذكر ما اختلف فيه الفلاسفة الكبار قديماً ، مثل سقراط وأرسطو . .
فسقراط يرى أن الفضيلة هى « المعرفة » ، فإذا عرف الإنسان الفضيلة معرفة راسخة ، اقتنع بها عقله ، واطمأن إليها قلبه ، فإنه لا بد أن يتمسك بها .
والأكان الخلل فى معرفته ، لا بد أنها معرفة سطحية ، لم تتغلغل فى عقله ، إذ لا يُتصور من العاقل أن يتأكد أن النار تحرق ، ثم يُقدم عليها .
وأرسطو يخالف أستاذه - أو أستاذ أستاذه - سقراط ، ويقول : إن المعرفة وحدها لا تؤدى إلى الفضيلة ، فكم من أناس يعرفون الفضيلة ويعملون عكسها ، تدفعهم إلى ذلك غرائزهم وشهواتهم ، أو إلفهم وعوائدهم ، أو نحو ذلك ، مما يدل على أهمية عنصر « الإرادة » بجوار عنصر « المعرفة » .

* *

● اختلاف علماء الإسلام فى القضية :

والعجيب أن هذه القضية اختلف فيها أيضاً علماء الإسلام ، وعرض لها الإمام ابن القيم بتفصيل وسعة فى كتابه « مفتاح دار السعادة ، ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة » وكتب فيها نحو عشرين صفحة .

ومما قاله هناك : « وهنا اختلف في مسألة عظيمة ، وهي : أن العلم هل يستلزم الاهتداء ، ولا يتخلف عنه الهدى ، إلا لعدم العلم أو نقصه ؟ وإلا فمع المعرفة الجازمة لا يتصور الضلال ، أو أنه لا يستلزم الهدى ، فقد يكون الرجل عالماً ، وهو ضال على عمد ؟ هذا مما اختلف فيه المتكلمون ، وأرباب السلوك ، وغيرهم .

❖ القول الأول : « العلم يستلزم الهداية » :

« فقالت فرقة : من عرف الحق معرفة لا يشك فيها استحال أن لا يهتدى ، وحيث ضل فلنقصان علمه .

احتجاجات هذا الفريق :

« واحتجوا من النصوص بقوله تعالى : ﴿ لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ (١) ، فشهد تعالى لكل راسخ في العلم بالإيمان .

وبقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ (٢) .

وبقوله تعالى : ﴿ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ ﴾ (٣) .

وبقوله تعالى : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ ﴾ (٤) .

وبقوله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى ﴾ (٥) . . . قسم الناس قسمين :

أحدهما : العلماء بأن ما أنزل إليه من ربه هو الحق .

والثاني : العمى ، فدل على أنه لا واسطة بينهما .

وبقوله تعالى في وصف الكفار : ﴿ صُمُّ بِكُمْ عُمَى فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (٦) .

(٣) سبأ : ٦

(٢) فاطر : ٢٨

(١) النساء : ١٦٢

(٦) البقرة : ١٧١

(٥) الرعد : ١٩

(٤) آل عمران : ١٨

وبقوله : ﴿ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (١) .
 وبقوله تعالى : ﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ ، وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةً ﴾ (٢) . . . وهذه مدارك العلم الثلاث قد سُدَّتْ عليهم .
 وكذلك قوله تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ ، أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ (٣) .

وهذا فى القرآن كثير مما يبين فيه منافاة الضلال للعلم .
 ومنه قوله تعالى : ﴿ وَمَنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنفًا ، أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ ﴾ (٤) .

فلو كانوا علموا ما قال الرسول لم يسألوا أهل العلم : ماذا قال ؟ ولما كان مطبوعاً على قلوبهم .

وقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا صُمُّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ ﴾ (٥) .
 وقال تعالى : ﴿ قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا ، إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا * وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴾ (٦) ، فهذه شهادة من الله تعالى لأولى العلم بالإيمان به وبكلامه .

وقال تعالى عن أهل النار : ﴿ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ (٧) ، فدلَّ على أن أهل الضلال لا سمع لهم ولا عقل .
 وقال تعالى : ﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ، وَمَا يَعْقِلُهَا

(١) التوبة : ٩٣	(٢) البقرة : ٧	(٣) الجاثية : ٢٣
(٤) محمد : ١٦	(٥) الأنعام : ٣٩	(٦) الإسراء : ١٠٧ ، ١٠٨
(٧) الملك : ١٠		

إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴿١﴾ ، أخبر تعالى أنه لا يعقل أمثاله إِلَّا الْعَالِمُونَ ،
والكفار لَا يَدْخُلُونَ فِي مَسْمَى الْعَالِمِينَ فهُمْ لَا يَعْقِلُونَهَا .

وقال تعالى : ﴿ بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ، فَمَنْ يَهْدِي
مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ ﴾ (٢) .

وقال تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا
آيَةٌ ﴾ (٣) .

وقال تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٤) ،
ولو كان الضلال يجمع العلم لكان الذين لا يعلمون أحسن حالاً من الذين
يعلمون ، والنص بخلافه .

والقرآن مملوء بسلب العلم والمعرفة عن الكفار ، فتارة يصفهم بأنهم
« لا يعلمون » ، وتارة بأنهم « لا يعقلون » ، وتارة بأنهم « لا يشعرون » ،
وتارة بأنهم « لا يفقهون » ، وتارة بأنهم « لا يسمعون » . والمراد بالسمع المنفى
سمع الفهم ، وهو سمع القلب لا إدراك الصوت ، وتارة بأنهم « لا يبصرون » ،
فدل ذلك كله على أن الكفر مستلزم للجهل ، منافي للعلم لا يجمعه ، ولهذا
يصف سبحانه الكفار بأنهم « جاهلون » ، كقوله تعالى : ﴿ وَعَبَادُ الرَّحْمَنِ
الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴾ (٥) .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا
وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴾ (٦) .

وقوله تعالى : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ (٧) .

(٣) البقرة : ١١٨

(٢) الروم : ٢٩

(١) العنكبوت : ٤٣

(٦) القصص : ٥٥

(٥) الفرقان : ٦٣

(٤) الزمر : ٩

(٧) الأعراف : ١٩٩

وقال النبي ﷺ لما بلغ قومه من أذاه ذلك المبلغ : « اللَّهُمَّ اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون » .

وفى الصحيحين عنه : « مَنْ يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين » ، فدل على أن الفقه مستلزم لإرادة الله الخير فى العبد

وقال ابن مسعود رضى الله عنه : كفى بخشية الله علماً ، وبالاغترار بالله جهلاً .

قالوا : فهذا القرآن والسنة وإطلاق السلف من الصحابة والتابعين يدل على أن العلم والمعرفة مستلزم للهداية ، وأن عدم الهداية دليل على الجهل وعدم العلم .

قالوا : ويدل عليه أن الإنسان ما دام عقله معه لا يؤثر هلاك نفسه على نجاتها وعذابها العظيم الدائم على نعيمها المقيم ، والحس شاهد بذلك . ولهذا وصف الله سبحانه أهل معصيته بالجهل فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ، وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً ﴾ (١) . قال سفيان الثورى : كل من عمل ذنباً من خلق الله فهو جاهل ، كان جاهلاً أو عالماً ، إن كان عالماً فمن أجهل منه ؟ وإن كان لا يعلم فمثل ذلك .

وقال ابن عباس رضى الله عنهما : ذنب المؤمن جهل منه . قال قتادة : أجمع أصحاب رسول الله ﷺ أن كل شئ عصى الله فيه فهو جهالة . وقال السدى : كل من عصى الله فهو جاهل .

قالوا : ويدل على صحة هذا : أن مع كمال العلم لا تصدر المعصية من العبد ، فإنه لو رأى صبيّاً يتطلع عليه من كوة لم تتحرك جوارحه لمواقعة الفاحشة ، فكيف يقع منه حال كمال العلم بنظر الله إليه ، ورؤيته له ، وعقابه

على الذنب ، وتحريمه له ، وسوء عاقبته ؟ فلا بد من غفلة القلب على هذا العلم ، وغيبته عنه . فحينئذ يكون وقوعه فى المعصية صادراً عن جهل وغفلة ونسيان مضاد للعلم ، والذنب محفوف بجهلين : جهل بحقيقة الأسباب الصارفة عنه ، وجهل بحقيقة المفسدة المترتبة عليه ، وكل واحد من الجهلين تحته جهالات كثيرة ، فما عَصَى الله إِلَّا بالجهل ، وما أُطِيعَ إِلَّا بالعلم ، فهذا بعض ما احتجَّت به هذه الطائفة .

※

※ القول الآخر : « العلم لا يستلزم الهداية » :

« وقالت الطائفة الأخرى : العلم لا يستلزم الهداية ، وكثيراً ما يكون الضلال عن عمد وعلم لا يشك صاحبه فيه ، بل يؤثر الضلال والكفر ، وهو عالم بقبحه ومفسدته .

أدلة هذا الفريق :

« قالوا : وهذا شيخ الضلال ، وداعى الكفر ، وإمام الفجرة ، إبليس عدو الله ، قد علم أمر الله له بالسجود لآدم ولم يشك فيه ، فخالفه وعاند الأمر ، وباء بلعنة الله وعذابه الدائم ، مع علمه بذلك ومعرفته به ، وأقسم له بعزته أنه يغوى خلقه أجمعين ، إلا عباده منهم المخلصين ، فكان غير شاك فى الله ، وفى وحدانيته ، وفى البعث الآخر ، وفى الجنة والنار ، ومع ذلك اختار الخلود فى النار واحتمال لعنة الله وغضبه وطرده من سمائه وجنته ، عن علم بذلك ومعرفة لم يحصل لكثير من الناس . ولهذا ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ ^(١) ، وهذا اعتراف منه بالبعث وإقرار به ، وقد علم قَسَمَ ربه ليملاَن جهنم منه ومن أتباعه . فكان كفره كفر عناد محض لا كفر جهل .

وقال تعالى إخباراً عن قوم ثمود : ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا

(١) الحجر : ٣٦

الْعَمَى عَلَى الْهُدَى ﴿١﴾ ، يعنى بينا لهم وعرفناهم فعرفوا الحق وتيقنوه وآثروا العمى عليه ، فكان كفر هؤلاء عن جهل .

وقال تعالى حاكياً عن موسى أنه قال لفرعون : ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَافِرْعَوْنُ مُبُوراً ﴾ (٢) ، أى هالِكاً - على قراءة مَنْ فتح التاء وهى قراءة الجمهور ، وضمها الكسائى وحده . وقراءة الجمهور أحسن وأوضح وأفخم معنى ، وبها تقوم الدلالة ، ويتم الإلزام ، بتحقيق كفر فرعون وعناده . ويشهد لها قوله تعالى إخباراً عنه وعن قومه : ﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ * وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً ، فَاَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾ (٣) ، فأخبر سبحانه أن تكذيبهم وكفرهم كان عن يقين - وهو أقوى العلم - ظلماً منهم وعُلُوّاً لا جهلاً .

وقال تعالى لرسوله : ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ الَّذِى يَقُولُونَ ، فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ (٤) ، يعنى أنهم قد عرفوا صدقك وأنت غير كاذب فيما تقول ، ولكن عاندوا وجحدوا بالمعرفة ، قاله ابن عباس رضى الله عنهما والمفسرون . قال قتادة : يعلمون أنك رسول ولكن يجحدون . قال تعالى : ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً ﴾ (٥) .

وقال تعالى : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ * يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (٦) ، يعنى تكفرون بالقرآن وبمن جاء به وأنتم تشهدون بصحته وبأنه الحق ، فكفركم كفر عناد وجحود عن علم وشهود لا عن جهل وخفاء . وقال تعالى عن السحرة من اليهود : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ

(٣) النمل : ١٣ ، ١٤

(٢) الإسراء : ١٠٢

(١) فصلت : ١٧

(٦) آل عمران : ٧٠ ، ٧١

(٥) النمل : ١٤

(٤) الأنعام : ٣٣

فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ ﴿١﴾ ، أَىْ عَلِمُوا مَنْ أَخَذَ السَّحَرِ وَقَبْلَهُ لَا نَصِيبَ لَهُ فِي الْآخِرَةِ وَمَعَ هَذَا الْعِلْمِ وَالْمَعْرِفَةِ فَهَمَّ يَشْتَرُونَهُ وَيَقْبَلُونَهُ وَيَتَعَلَّمُونَهُ .
 وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ﴾ (٢) ،
 ذَكَرَ هَذِهِ الْمَعْرِفَةَ عَنْ أَهْلِ الْكِتَابِ فِي الْقِبْلَةِ كَمَا فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ ، وَفِي التَّوْحِيدِ كَقَوْلِهِ فِي الْأَنْعَامِ : ﴿ أَتُنْكُمُ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَىٰ ، قُلْ لَا أَشْهَدُ ، قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ وَإِنِّى بَرِىءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ * الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ﴿ (٣) ، وَفِي الْكِتَابِ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ ﴾ (٤) .

وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ كَيْفَ يَهْدَى اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ، وَاللَّهُ لَا يَهْدَى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (٥) .
 قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا : هُم قَرِيطَةُ وَالنَّضِيرُ وَمَنْ دَانَ بَدِينِهِمْ ، كَفَرُوا بِالنَّبِيِّ ﷺ بَعْدَ أَنْ كَانُوا قَبْلَ مَبْعَثِهِ مُؤْمِنِينَ بِهِ ، وَشَهِدُوا لَهُ بِالنَّبَوَةِ . وَإِنَّمَا كَفَرُوا بَغْيًا وَحَسَدًا . قَالَ الزُّجَّاجُ : أَعْلَمَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّهُ لَا جِهَةَ لِهَدَايَتِهِمْ ؛ لِأَنَّهُمْ قَدْ اسْتَحَقُّوا أَنْ يَضِلُّوا بِكَفَرِهِمْ ، لِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بَعْدَ الْبَيِّنَاتِ . وَمَعْنَى « كَيْفَ يَهْدِيهِمْ » : أَىْ أَنَّهُ لَا يَهْدِيهِمْ ، لِأَنَّ الْقَوْمَ عَرَفُوا الْحَقَّ وَشَهِدُوا بِهِ وَتَيَقَّنُوهُ ، وَكَفَرُوا عَمْدًا ، فَمِنْ أَيْنَ تَأْتِيهِمُ الْهَدَايَةُ ؟ فَإِنَّ الَّذِي تُرْتَجَى هَدَايَتُهُ مَنْ كَانَ ضَالًّا وَلَا يَدْرِي أَنَّهُ ضَالٌّ ، بَلْ يَظُنُّ أَنَّهُ عَلَى هَدًى ، فَإِذَا عَرَفَ الْهَدًى اهْتَدَى . وَأَمَّا مَنْ عَرَفَ الْحَقَّ وَتَيَقَّنَهُ ، وَشَهِدَ بِهِ قَلْبُهُ ، ثُمَّ اخْتَارَ الْكُفْرَ وَالضَّلَالَ عَلَيْهِ ، فَكَيْفَ يَهْدَى اللَّهُ مِثْلَ هَذَا ؟

وَقَالَ تَعَالَى عَنِ الْيَهُودِ : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ، فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ (٦) ، ثُمَّ قَالَ : ﴿ بِسْمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يَنْزِلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ (٧) . قَالَ

(٣) الْأَنْعَامُ : ١٩ ، ٢٠

(٢) الْبَقَرَةُ : ١٤٦

(١) الْبَقَرَةُ : ١٠٢

(٦) الْبَقَرَةُ : ٨٩

(٥) آلِ عِمْرَانَ : ٨٦

(٤) الْأَنْعَامُ : ١١٤

(٧) الْبَقَرَةُ : ٩٠

ابن عباس رضى الله عنهما : لم يكن كفرهم شكاً ولا اشتباهاً ، ولكن بغياً منهم حيث صارت النبوة فى ولد إسماعيل .

ثم قال بعد ذلك : ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَانَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (١) ، فلما شبههم فى فعلهم هذا بمن لا يعلم ، دل على أنهم نبذوه عن علم ، كفعل من لا يعلم . تقول إذا خاطبت من عصاك عمداً : كأنك لم تعلم ما فعلت ، أو كأنك لم تعلم بنهى إياك .

وقال تعالى : ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ، فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ ﴾ (٢) . قالوا : فهل بعد هذه الآية بيان ؟ فإن هذا آتاه الله آياته فانسلخ منها ، وآثر الضلال والغى ، وقصته معروفة حتى قيل إنه كان أوتى الاسم الأعظم ، ومع هذا فلم ينفعه علمه ، وكان من الغاوين ، فلو استلزم العلم والمعرفة الهداية لاستلزمه فى حق هذا .

وقال تعالى : ﴿ وَعَادُوا وَثِمُودًا وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُم مِّنْ مَّسَاكِنِهِمْ ، وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ﴾ (٣)

قالوا : ويكفى فى هذا إخباره تعالى عن الكفار أنهم يقولون بعد ما عاينوا العذاب ، ووردوا القيامة ، ورأوا ما أخبرت به الرسل : ﴿ يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبُ بآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ * بَلْ بَدَأَ لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ، وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ (٤) ، فأى علم أين من علم من ورد القيامة ، ورأى ما فيها وذاق عذاب الآخرة ؟ ثم لو رُدُّوا إلى الدنيا لاختار الضلال على الهدى ، ولم ينفعه ما قد عاينه ورآه ؟

وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَاهُ إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا

(٢) الأعراف : ١٧٥ ، ١٧٦

(١) البقرة : ١٠١

(٤) الأنعام : ٢٧ ، ٢٨

(٣) العنكبوت : ٣٨

عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبْلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنْ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١﴾ ، فهل بعد نزول الملائكة عياناً ، وتكليم الموتى لهم ، وشهادتهم للرسول بالصدق ، وحشر كل شيء فى الدنيا عليهم من بيان وإيضاح للحق وهدى ؟ ومع هذا فلا يؤمنون ، ولا ينقادون للحق ، ولا يصدقون الرسول !

ومنَ نظر فى سيرة رسول الله ﷺ مع قومه ، ومع اليهود ، علم أنهم كانوا جازمين بصدقه ﷺ ، لا يشكون أنه صادق فى قوله إنه رسول الله ، ولكن اختاروا الضلال والكفر على الإيمان . قال المسور بن مخرمة رضى الله عنه لأبى جهل وكان خاله : أى خال ؛ هل كنتم تتهمون محمداً بالكذب قبل أن يقول مقالته التى قالها ؟ قال أبو جهل لعنه الله تعالى : يا ابن أخى ؛ والله لقد كان محمد فينا وهو شاب يُدعى الأمين ، ما جربنا عليه كذباً قط ، فلما وخطه الشيب لم يكن ليكذب على الله ! قال : يا خال ؛ فلم لا تتبعونه ؟ قال : يا ابن أخى ؛ تنازعنا نحن وبنو هاشم الشرف ، فأطعموا وأطعمنا ، وسقوا وسقينا ، وأجاروا وأجرنا ، فلما تجاثينا على الركب ، وكنا كفرسى رهان ، قالوا : منا نبى ، فمتى نذكر هذه ؟

وهذا أُمية بن أبى الصلت كان ينتظره يوماً بيوم ، وعلمه عنده قبل مبعثه ، وقصته مع أبى سفيان لما سافرا معاً معروفة ، وإخباره برسول الله ﷺ ، ثم لما تيقنه وعرف صدقه قال : لا أؤمن بنبى من غير ثقيف أبداً .

وهذا هرقل تيقن أنه رسول الله ﷺ ، ولم يشك فيه ، وآثر الضلال والكفر استبقاءً للملكه .

ولما سأله اليهود عن التسع آيات البينات فأخبرهم بها قَبَلُوا يده ، وقالوا : نشهد أنك نبى . قال : فما يمنعكم أن تتبعونى ؟ قالوا : إن داود عليه السلام دعا أن لا يزال فى ذُرِّيَّتِهِ نبى ، وإنَّا نخشى أن اتبعناك أن تقتلنا يهود ! فهؤلاء قد تحققوا نبوته وشهدوا له بها ، ومع هذا فأثروا الكفر والضلال .

* *

• أقسام الكفر :

« قالوا : وقد بين القرآن أن الكفر أقسام :

أحدها : كفر صادر عن جهل وضلال ، وتقليد الأسلاف ، وهو كفر أكثر الأتباع والعوام .

والثاني : كفر جحود وعناد وقصد مخالفة الحق ، ككفر من تقدم ذكره ، وغالب ما يقع هذا النوع فيمن له رياسة علمية فى قومه من الكفار ، أو رياسة سلطانية ، أو من له مآكل وأموال فى قومه ، فيخاف هذا على رياسته ، وهذا على ماله ومأكله ، فيؤثر الكفر على الإيمان عمداً .

الثالث : كفر إعراض محض ، لا ينظر فيما جاء به الرسول ، ولا يحبه ولا يبغضه ، ولا يواليه ولا يعاديه ، بل هو معرض عن متابعتة ومعاداته .

وهذان القسمان أكثر المتكلمين ينكرونها ولا يشبتون من الكفر إلا الأول ، ويجعلون الثانى والثالث كفراً لدلالته على الأول ، لا لأنه فى ذاته كفر ، فليس عندهم الكفر إلا مجرد الجهل !

ومن تأمل القرآن والسنة وسير الأنبياء فى أمهم ودعوتهم لهم وما جرى لهم معهم ، جزم بخطأ أهل الكلام فيما قالوه ، وعلم أن عامة كفر الأمم عن تيقن وعلم ، ومعرفة بصدق أنبيائهم ، وصحة دعواهم وما جاؤا به . وهذا القرآن مملوء من الأخبار عن المشركين عبادة الأصنام أنهم كانوا يقرون بالله ، وأنه هو وحده ربهم وخالقهم ، وأن الأرض وما فيها له وحده ، وأنه رب السموات السبع ورب العرش العظيم ، وأنه بيده ملكوت كل شىء ، وهو يجير ولا يجار عليه ، وأنه هو الذى سخر الشمس والقمر ، وأنزل المطر ، وأخرج النبات . والقرآن مناد عليهم بذلك ، محتج بما أقروا به من ذلك على صحة ما دعتهم إليه رسله . فكيف يقال : إن القوم لم يكونوا مقرين قط بأن لهم رباً وخالقاً ، وهذا بهتان عظيم ، فالكفر أمر وراء مجرد الجهل ، بل الكفر الأغلب هو ما أنكره هؤلاء ، وزعموا أنه ليس بكفر .

قالوا : والقلب عليه واجبان لا يصير مؤمناً إلا بهما جميعاً : واجب المعرفة والعلم ، وواجب الحب والانقياد والاستسلام . فكما لا يكون مؤمناً إذا لم يأت بواجب العلم والاعتقاد لا يكون مؤمناً إذا لم يأت بواجب الحب والانقياد والاستسلام . بل إذا ترك هذا الواجب مع علمه ومعرفته به كان أعظم كفراً ، وأبعد عن الإيمان من الكافر جهلاً . فإن الجاهل إذا عرف وعلم فهو قريب إلى الانقياد والاتباع . وأما المعاند فلا دواء فيه . قال تعالى : ﴿ كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرُّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (١) .

قالوا : فحب الله ورسوله ، بل كون الله ورسوله أحب إلى العبد من سواهما : لا يكون العبد مسلماً إلا به . ولا ريب أن الحب أمر وراء العلم ، فما كل من عرف الرسول أحبه كما تقدم .

قالوا : وهذا الحاسد يحمله بغض المحسود على معاداته ، والسعى في أذاه بكل ممكن ، مع علمه بفضلته وعلمه ، وأنه لا شيء فيه يوجب عداوته إلا محاسنه وفضائله . ولهذا قيل : الحاسد عدو للنعم والمكارم ! فالحاسد لم يحمله على معاداة المحسود جهله بفضلته وكماله ، وإنما حمله على ذلك فساد قصده وإرادته ، كما هي حال الرُّسُل وورثتهم مع الرؤساء الذين سلبهم الرُّسُل ووارثوهم رئاستهم الباطلة ، فعادوهم وصدّوا النفوس عن متابعتهم ، ظناً أن الرياسة تبقى لهم وينفردون بها . وسنة الله في هؤلاء أن يسلبهم رياسة الدنيا والآخرة ، ويصغرهم في عيون الخلق ، مقابلة لهم بنقيض قصدهم ، ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ (٢) .



• حكم ابن القيم بين الفريقين :

« فهذا موارد احتجاج الفريقين ، وموقف أقدام الطائفتين ، فاجلس أيها المنصف منهما مجلس الحكومة ، وتوخ بعلمك وعدلك فصل هذه الخصومة ، فقد أدلى كل منهما بحجج لا تُعارض ولا تُمانع ، وجاء بينات لا تُرد ولا تُدافع ، فهل عندك شيء غير هذا يحصل به فصل الخطاب ، وينكشف به لطالب الحق وجه الصواب ، فيرضى الطائفتين ، ويزول به الاختلاف من البين ؟ وإلا فخلّ المطى وحاديها ، وأعط القوس باريها :

دع الهوى لأناس يُعرفون به قد كابدوا الحب حتى لان أصعبه !
ومن عرف قدره ، وعرف لذى الفضل فضله ، فقد قرع باب التوفيق ،
والله الفتّاح العليم ، فنقول وبالله التوفيق :

كلّ الطائفتين ما خرجت عن موجب العلم ، ولا عدلت عن سنن الحق ،
وإنما الاختلاف والتباين بينهما من عدم التوارد على محل واحد ، ومن إطلاق
ألفاظ مجملة بتفصيل معانيها يزول الاختلاف ، ويظهر أن كل طائفة موافقة
الأخرى على نفس قولها .

وبيان هذا : أن المقتضى قسمان :

مقتضى لا يتخلف عنه موجب ومقتضاه ، لقصوره في نفسه ، بل يستلزمه
استلزام العلة التامة لمعلولها .

ومقتضى غير تام يتخلف عنه مقتضاه لقصوره في نفسه عن التمام ،
أو لفوات شرط اقتضائه ، أو قيام مانع منع تأثيره .

فإن أريد بكون العلم مقتضياً للاهتمام : الاقتضاء التام الذى لا يتخلف عنه
أثره ، بل يلزمه الاهتمام بالفعل ، فالصواب قول الطائفة الثانية ، وأنه لا يلزم
من العلم حصول الاهتمام المطلوب .

وإن أريد بكونه موجباً : أنه صالح للاهتمام مقتضى له ، وقد يتخلف عنه

مقتضاء لقصوره ، أو فوات شرط ، أو قيام مانع ، فالصواب قول الطائفة الأولى .

* *

● موانع الاهتداء إلى الحق :

« وتفصيل هذه الجملة : أن العلم بكون الشيء سبباً لمصلحة العبد ولذاته وسروره قد يتخلف عنه عمله بمقتضاه ، لأسباب عديدة :

السبب الأول : ضعف معرفته بذلك .

السبب الثانى : عدم الأهلية . وقد تكون معرفته به تامة ، لكن يكون مشروطاً بزكاة المحل وقبوله للتزكية ، فإذا كان المحل غير زكى ولا قابل للتزكية ، كان كالأرض الصلدة التى لا يخالطها الماء ، فإنه يمتنع النبات منها ، لعدم أهليتها وقبولها ، فإذا كان القلب قاسياً حجرياً لا يقبل تزكية ولا تؤثر فيه النصائح ، لم ينتفع بكل علم يعلمه ، كما لا تنبت الأرض الصلبة ولو أصابها كل مطر ، وبُذِرَ فيها كل بذر كما قال تعالى فى هذا الصنف من الناس : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ * وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿ (١) ، وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ (٢) ، وقال تعالى : ﴿ قُلْ انظُرُوا مَاذَا فِى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَمَا تُغْنِى الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (٣) . . . وهذا فى القرآن كثير .

فإذا كان القلب قاسياً غليظاً جافياً ، لا يعمل فيه العلم شيئاً ، وكذلك إذا كان مريضاً مهيناً مائياً لا صلابه فيه ولا قوة ولا عزيمة لم يؤثر فيه العلم .

السبب الثالث : قيام مانع ، وهو : إما حسد ، أو كبر . وذلك مانع

(٣) يونس : ١٠١

(٢) الأنعام : ١١١

(١) يونس : ٩٦ ، ٩٧

إبليس من الانقياد للأمر ، وهو داء الأولين والآخرين ، إلا مَنْ عصم الله . .
وبه تخلف الإيمان عن اليهود الذين شاهدوا رسول الله ﷺ وعرفوا صحة
نبوته ، ومن جرى مجراهم ، وهو الذى منع عبد الله بن أبيّ من الإيمان ،
وبه تخلف الإيمان عن أبى جهل وسائر المشركين ، فإنهم لم يكونوا يرتابون
فى صدقه ، وأن الحق معه ، لكن حملهم الكبر والحسد على الكفر ، وبه
تخلف الإيمان عن أمية (ابن أبى الصلت) وأضرابه ممن كان عنده علم بنبوة
محمد ﷺ .

السبب الرابع : مانع الرياسة والمُلْك ، وإن لم يقم بصاحبه حسد ولا تكبر
عن الانقياد للحق ، لكن لا يمكنه أن يجتمع له الانقياد ومُلْكُه ورياسته ،
فيضن بمُلْكِه ورياسته كحال هرقل وأضرابه من ملوك الكفار ، الذين علموا
نبوته وصدقه ، وأقروا بها باطناً ، وأحبوا الدخول فى دينه ، لكن خافوا على
مُلْكِهِمْ . وهذا داء أرباب المُلْك والولاية والرياسة ، وقَلَّ مَنْ نجا منه إلا مَنْ
عصم الله ، وهو داء فرعون وقومه . ولهذا قالوا : ﴿ أَنْزِلْ لَنَا آيَةً ﴾ (١) ، أنفوا أن يؤمنوا ويتبعوا موسى وهارون وينقادوا
لهما ، وبنو إسرائيل عبيد لهم . ولهذا قيل : إن فرعون لما أراد متابعة موسى
وتصديقه شاور هامان وزيره . فقال : بينا أنت إله تُعبد ، تصير عبداً تُعبد
غيرك ! فأبى العبودية واختار الرياسة والإلهية المحال .

السبب الخامس : مانع الشهوة والمال ، وهو الذى منع كثيراً من أهل
الكتاب من الإيمان ، خوفاً من بطلان مأكَلِهِمْ ، وأمواْلِهِمْ التى تصير إليهم من
قومهم ، وقد كانت كفار قريش يصدون الرجل عن الإيمان بحسب شهوته ،
فيدخلون عليه منها . فكانوا يقولون لمن يحب الزنا : إن محمداً يُحرّم الزنا
ويُحرّم الخمر ، وبه صدّوا الأعشى الشاعر عن الإسلام ، وقد فاوضت غير
واحد من أهل الكتاب فى الإسلام وصحته ، فكان آخر ما كلمنى به أحدهم :

(١) المؤمنون : ٤٧

أنا لا أترك الخمر وأشربها آمناً ، فإذا أسلمتُ حَلَّتْم بيني وبينها ، وجلدتموني على شربها ! وقال آخر منهم بعد أن عرف ما قلت له : لى أقارب أرباب أموال ، وإنى إن أسلمتُ لم يصل إلىَّ منها شيء ، وأنا أوْمَل أن أرثهم ، أو كما قال .

ولا ريب أن هذا القدر فى نفوس خلق كثير من الكفار ، فتتفق قوة داعى الشهوة والمال ، وضعف داعى الإيمان ، فيجيب داعى الشهوة والمال ، ويقول : لا أرغب بنفسى عن آبائى وسلَفى .

السبب السادس : محبة الأهل والأقارب والعشيرة ، يرى أنه إذا اتبع الحق وخالفهم أبعدوه وطرده عنهم ، وأخرجوه من بين أظهرهم . وهذا سبب بقاء خلق كثير على الكفر بين قومهم وأهاليهم وعشائهم .

السبب السابع : محبة الدار والوطن ، وإن لم يكن له بها عشيرة ولا أقارب ، لكن يرى أن فى متابعة الرسول خروجه عن داره ووطنه إلى دار الغربة والنوى ، فيضن بوطنه .

السبب الثامن : تخيل أن فى الإسلام ومتابعة الرسول إزراءً وطعنًا منه على آبائه وأجداده ، وذمًا لهم ، وهذا هو الذى منع أبا طالب وأمثاله عن الإسلام

السبب التاسع : متابعة من يعاديه من الناس للرسول ، وسبقه إلى الدخول فى دينه ، وتخصصه وقربه منه ، وهذا القدر منع كثيراً من اتباع الهدى ، يكون للرجل عدو ويبغض مكانه ، ولا يحب أرضاً يمشى عليها ، ويقصد مخالفته ومناقضته ، فيراه قد اتبع الحق ، فيحمله قصد مناقضته ومعاداته على معاداة الحق وأهله ، وإن كان لا عداوة بينه وبينهم ، وهذا كما جرى لليهود مع الأنصار ، فإنهم كانوا أعداءهم وكانوا يتواعدونهم بخروج النبى ﷺ ، وأنهم يتبعونه ويقاتلونهم معه ، فلما بدرهم إليه الأنصار وأسلموا ، حملهم معاداتهم على البقاء على كفرهم ويهوديتهم .

السبب العاشر : مانع الألف والعادة والمنشأ ؛ فإن العادة قد تقوى حتى تغلب حكم الطبيعة ، ولهذا قيل : هى طبيعة ثانية . فيربى الرجل على المقالة ، وينشأ عليها صغيراً ، فيتربى قلبه ونفسه عليها ، كما يتربى لحمه وعظمه على الغذاء المعتاد ، ولا يعقل نفسه إلا عليها ، ثم يأتيه العلم وهلة واحدة يريد إزالتها وإخراجها من قلبه ، وأن يسكن موضعها ، فيعسر عليه الانتقال ، ويصعب عليه الزوال .

وهذا السبب ، وإن كان أضعف الأسباب معنى ، فهو أغلبها على الأمم ، وأرباب المقالات والنحل ليس مع أكثرهم بل جميعهم - إلا ما عسى أن يشذ - إلا عادة ومربى تربى عليه طفلاً ، لا يعرف غيرها ، ولا يحسن به ، فدين العوائد هو الغالب على أكثر الناس ، فالانتقال عنه كالانتقال عن الطبيعة إلى طبيعة ثانية ، فصلوات الله وسلامه على أنبيائه ورسله خصوصاً على خاتمهم وأفضلهم محمد ﷺ ، كيف غيروا عوائد الأمم الباطلة ، ونقلوهم إلى الإيمان حتى استحدثوا به طبيعة ثانية ، خرجوا بها عن عاداتهم وطبيعتهم الفاسدة ، ولا يعلم مشقة هذا على النفوس ، إلا من زاول نقل رجل واحد عن دينه ومقالته إلى الحق ، فجزى الله المرسلين أفضل ما جزى به أحداً من العالمين » (١) .

* * *

العلم سبيل اليقين

وكما أن العلم - كما يصوره القرآن - دليل الإيمان ، فهو كذلك سبيل اليقين ، وهو - كما قال الراغب - سكون الفهم مع ثبات الحكم . وهو من صفة العلم ، فوق المعرفة والدراية وأحواتها . يقال : علم يقين ، ولا يقال : معرفة يقين .

وهو يقابل الظن والشك . قال في الصحاح : اليقين : العلم وزوال الشك . ولهذا قال تعالى في خطاب المشركين : ﴿ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُستَيْقِنِينَ ﴾ (١) .

وفى شأن الذين زعموا قتل عيسى : ﴿ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ، وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴾ (٢) .

واليقين بالله تعالى وآياته ولقائه هو ما يسعى إليه كل مؤمن ، ويحرص على تحقيقه ، ليجد فيه ثلج صدره ، وطمأنينة قلبه ، وسكينة نفسه ، وإنما يصل إلى هذه المرتبة بالعلم ورسوخه ، الذي يطرد الجهل والظن والشك .

يقول تعالى : ﴿ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ (٣) .
 ﴿ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ (٤) .
 ﴿ هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ (٥) .
 ﴿ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يَفْصِلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴾ (٦) .
 ﴿ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ * وَفِي أَنْفُسِكُمْ ، أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ (٧) .

(٣) البقرة : ١١٨

(٢) النساء : ١٥٧

(١) الجاثية : ٣٢

(٦) الرعد : ٢

(٥) الجاثية : ٢٠

(٤) الجاثية : ٤

(٧) الذاريات : ٢٠ ، ٢١

ومدح الله خليله إبراهيم عليه السلام بقوله : ﴿ وَكَذَلِكَ نُرَى إِبْرَاهِيمَ
مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴾ (١) .

كما مدح الله تعالى المتقين والمؤمنين والحسين بأنهم من أهل اليقين بالآخرة ،
فقال تعالى فى مطلع سورة البقرة : ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ
بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ
إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ * أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّنْ
رَّبِّهِمْ ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (٢) .

وكذلك وصف المؤمنين فى مطلع سورة النمل ، والمحسين فى مطلع سورة لقمان ،
فكلهم : ﴿ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ (٣) .

وجعل القرآن اليقين مع الصبر ، جناحين يطير بهما الإنسان إلى مقام
الإمامة فى الدين ، يقول تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا
صَبَرُوا ، وَكَانُوا بَايَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ (٤) .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : « بالصبر واليقين ثنال الإمامة فى الدين » .

ومن المعلوم أن الشيطان يحارب الإنسان المؤمن بجندين رئيسين : جند
الشهوات ، وجند الشبهات . فهو بالشهوات يفسد سلوكه وعمله ،
وبالشبهات يفسد اعتقاده وفكره . والمؤمن يقاوم هذا الغزو الشيطاني بسلاحين
أساسيين : سلاح الصبر ليهزم به الشهوات ، وسلاح اليقين ليهزم به الشبهات .

وقد أمر الله سبحانه رسوله ﷺ بالصبر والثبات ، ونهاه أن يستخفه الذين
لا يوقنون بالله ولا بالآخرة ، فيستعجل فيما تنبغى فيه الأناة ، أو يغضب
حيث ينبغى الرضا ، أو يقتحم حيث ينبغى التثبت ، فقال تعالى : ﴿ فَاصْبِرْ
إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ، وَلَا يَسْتَخِفُّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾ (٥) .

(٣) النمل : ٣ ، ولقمان : ٤

(٢) البقرة : ٢ - ٥

(١) الأنعام : ٧٥

(٥) الروم : ٦٠

(٤) السجدة : ٢٤

ومن علامات الساعة الكبرى التى تنبئ بأن الكون يوشك أن تنقض خيامه ، وينفطر نظامه : خروج دابة الأرض ، التى تخاطب الناس ، وتعلمهم بانعدام اليقين بآيات الله ، كما قال عز وجل : ﴿ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴾ (١) .

قال ابن القيم : « واليقين من الإيمان بمنزلة الروح من الجسد ، وبه تفاضل العارفون ، وفيه تنافس المتنافسون ، وإليه شمر العاملون ، وعمل القوم إنما كان عليه ، وإشاراتهم كلها إليه . . . وهو روح أعمال القلوب ، التى هى أرواح أعمال الجوارح ، وهو حقيقة الصّدّيقية ، وهو قطب هذا الشأن الذى عليه مداره » (٢) .

قال ابن القيم : « لو لم يكن من فوائد العلم إلا أنه يُشمر اليقين الذى هو أعظم حياة القلب ، وبه طمأنينته ، وقوته ، ونشاطه وسائر لوازم الحياة ، ولهذا مدح الله سبحانه أهله فى كتابه وأثنى عليهم بقوله : ﴿ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ (٣) ، وقوله فى حق خليله إبراهيم : ﴿ وَكَذَلِكَ نُرَى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴾ (٤) . وذم من لا يقين عنده فقال : ﴿ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴾ (٥) . وفى الحديث المرفوع من حديث سفيان الثورى عن سليمان التيمى عن خيثمة عن عبد الله ابن مسعود يرفعه : « لَا تَرْضَيْنَ أَحَدًا بِسَخَطِ اللَّهِ ، وَلَا تَحْمَدَنَّ أَحَدًا عَلَى فَضْلِهِ ، وَلَا تَذُمَّنَّ أَحَدًا عَلَى مَا لَمْ يُوْتِكِ اللَّهُ ، فَإِنَّ رِزْقَ اللَّهِ لَا يَسْوَقه حِرْصُ حَرِيصٍ ، وَلَا يَرْدُه عَنْكَ كِرَاهِيَةُ كَارِهٍ ، وَإِنَّ اللَّهَ - بَعْدْلُه وَقِسْطُه - جَعَلَ

(١) النمل : ٨٢

(٢) مدارج السالكين : ٣٩٧/٢ - طبعة السّنة المحمدية - مصر .

(٥) النمل : ٨٢

(٤) الأنعام : ٧٥

(٣) البقرة : ٤

الرَّوْحَ والراحة والفرح فى الرضا واليقين ، وجعل الهم والحزن فى الشك والسخط » ، فإذا باشر القلب اليقين امتلاً نوراً ، وانتفى عنه كل ريب وشك ، وعوفى من أمراضه القاتلة ، وامتلاً شكراً لله ، وذكرأ له ، ومحبة وخوفاً ، فحى عن بئنة .

واليقين والمحبة هما ركنا الإيمان ، وعليهما يبنى ، وبهما قوامه ، وهما يمدان سائر الأعمال القلبية والبدنية ، وعنهما تصدر ، وبضعفهما يكون ضعف الأعمال ، وبقوتها قوتها . وجميع منازل السائرين ، ومقامات العارفين ، إنما تفتح بهما ، وهما يثمران كل عمل صالح ، وعلم نافع ، وهدى مستقيم . قال شيخ العارفين الجنيد : اليقين هو استقرار العلم ، الذى لا ينقلب ، ولا يتحول ، ولا يتغير فى القلب .

وقال سهل : حرام على قلب أن يشم رائحة اليقين ، وفيه سكون إلى غير الله .

وقيل : من علاماته : الالتفات إلى الله فى كل نازلة ، والرجوع إليه فى كل أمر ، والاستعانة به فى كل حال ، وإرادة وجهه بكل حركة وسكون .

وقال السرى : اليقين السكون عند جولان الموارد فى صدرك ، لتيقنك أن حركتك فيها لا تنفعك ولا ترد عنك مقضياً .

قلت : هذا إذا لم تكن الحركة مأموراً بها ، فإذا كانت مأموراً بها ، فاليقين فى بذل الجهد فيها واستفراغ الوسع .

وقيل : إذا استكمل العبد حقيقة اليقين صار البلاء عنده نعمة والمحنة منحة . فالعلم أول درجات اليقين . ولهذا قيل : العلم يستعملك واليقين يحملك .

فاليقين أفضل مواهب الرب لعبده ، ولا تثبت قدم الرضا إلا على درجة اليقين .

قال تعالى : ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَمَنْ يُؤْمِنْ

بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ﴿١﴾ . قال ابن مسعود : هو العبد تصيبه المصيبة فيعلم أنها من الله ، فيرضى ويسلم . فلهذا لم يحصل له هداية القلب ، والرضا والتسليم ، إلا بيقينه ﴿٢﴾ .

* *

● درجات اليقين :

واليقين - كما ذكره القرآن - درجات ثلاث :

أولاهما : علم اليقين . وإليها الإشارة بقوله تعالى : ﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴾ (٣) .

وثانيتهما : عين اليقين ، وإليها يشير قوله تعالى : ﴿ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴾ * ثم لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴿٤﴾ .

وثالثتها - وهى الأعلى والأخيرة : حق اليقين . وإليها الإشارة بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ ﴾ (٥) .

وقال عن القرآن : ﴿ وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ ﴾ (٦) .

* درجة علم اليقين :

فأما « علم اليقين » فهو العلم الراسخ الجازم ، الذى لا يخالج القلب فيه شبهة ، ولا شك ، ولا تناس ولا غفلة عنه . فكل عقيدة تواردت عليها الأدلة ، وتكاثرت الآيات البيّنات على صدقها وصحتها ، حتى صدّق بها العقل ، واطمأن بها القلب ، وسكنت إليها النفس ، وانتفت عنها كل الظنون والشكوك والشبهات ، فهذا العلم أو هذا الإيمان بها ، أو هذا العلم

(٢) مفتاح دار السعادة : ١٥٤/١ ، ١٥٥

(١) التباين : ١١

(٤) التكاثر : ٦ ، ٧

(٣) التكاثر : ٥

(٦) الحاقة : ٥١

(٥) الواقعة : ٩٥

المؤمن أو الإيمان العالم ، هو علم اليقين ، الذى مدح الله به عباده المتقين فى كتابه ، وإن كانت مراتبه تتفاوت ، وهو يزداد ويقوى بالأسباب والبراهين والطاعات ، التى تزيده قوة على قوة . كما قال أحد السلف - وهو عامر ابن عبد قيس - : لو كُشِفَ الغطاء ما ازددت يقيناً !

وقال بعضهم : رأيت الجنة والنار حقيقة . قيل له : وكيف ؟ قال : رأيتهما بعينى رسول الله ﷺ . ورؤيتى لهما بعينه أثر عندى من رؤيتى لهما بعينى ، فإن بصرى قد يطغى ويزيغ ، بخلاف بصره صلى الله عليه وسلم (١) .

✱

✱ درجة عين اليقين :

وأما درجة « عين اليقين » فهى أعلى وأرفع . والفرق بينها وبين « علم اليقين » كالفرق بين المعاينة والخبر الصادق . والشاعر يقول :

يا ابن الكرام ألا تدنو فتبصر ما قد حدثوك ؟ فما راء كمن سمعا !
وفى الحديث : « ليس الخبر كالمعاينة » (٢) .

وهى الدرجة التى طلبها خليل الله إبراهيم عليه السلام من ربه ، حين قال : ﴿ رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى ، قَالَ أَوْ لَمْ تُؤْمِنْ ، قَالَ بَلَىٰ وَلَكِنْ لِّيَطْمَئِنَّ قُلُوبِي ، قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ، وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (٣) .

وهى التى رقى الله عز وجل إليها خاتم رسله ، وصفوة خلقه محمداً ﷺ ، ليلة الإسراء والمعراج ، ليرى من آيات ربه الكبرى ، ويشاهد من عوالم

(١) انظر : مدارج السالكين : ٢ / ٤٠٠

(٢) رواه أحمد والطبرانى فى الأوسط والحاكم عن ابن عباس ، والطبرانى فى الأوسط عن أنس ، والخطيب عن أبى هريرة ، كما فى صحيح الجامع الصغير وزيادته (٣) البقرة : ٢٦٠ . (٥٣٧٤) ، (٥٣٧٣) .

الغيب عياناً ما لم يشهده غيره ، ورأى جبريل على صورته الملكية الحقيقية ،
كما قال تعالى : ﴿ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى ﴾ * أَفْتَمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَى *
وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى * عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى * عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى *
إِذْ يَغْشَى السُّدْرَةَ مَا يَغْشَى * مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى * لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ
رَبِّهِ الْكُبْرَى ﴿١﴾ .

*

* درجة حق اليقين :

وأما « حق اليقين » فهي درجة فوق « علم اليقين » ، و« عَيْن اليقين » .
فإذا كان « علم اليقين » للخبر الصادق ، و« عَيْن اليقين » للمشاهدة
والعيان ، فإن « حق اليقين » أشبه باللمس والذوق .
وقد مثلوا المراتب الثلاث بمن أخبرك أن عنده عسلاً طبيعياً مصفىً حلو
المذاق ، صفته كذا وكذا . وأنت لا تشك في صدقه . . ثم أراك إياه ،
فازددت يقيناً ، ثم قدّمه إليك فذقته وأكلت منه .
فالأول : « علم اليقين » . والثاني : « عَيْن اليقين » . والثالث : « حق
اليقين » .

قال ابن القيم : « فعلمنا بالجنة والنار : علم يقين ، فإذا أزلفت الجنة -
في الموقف - للمتقين ، وشاهدها الخلائق ، وبرزت الجحيم للغاوين ،
وعاينها الخلائق ، فذلك عَيْن اليقين . فإذا أدخل أهل الجنة الجنة ، وأهل
النار النار ، فذلك حق اليقين » (٢) .

* * *

العلم شرط فى كل منصب قيادى

ومن فضل العلم الذى أشار إليه القرآن : أنه اعتبر « العلم » مؤهلاً لا بد منه ، لكل منصب قيادى فى المجتمع ، فلا يجوز أن يقود الأمة جهالها ، إنما يقودها علماءها . والأمة التى توسد مناصبها القيادية إلى الجهلة إنما تحفر رمسها بخمسها ، لأنهم لا يسوقونها إلا إلى الضلال والوبال . وقد قال الشاعر :

إذا كان الغراب دليل قوم سيهديهم إلى جيف الكلاب !

قالوا : إن بشار بن برد الشاعر المعروف - وقد كان مكفوف البصر - سألته أجد المبصرين يوماً عن طريق أو مكان ، فقال : تعال أدلك عليه ، ثم أنشأ يقول ساخرأ :

أعمى يقود بصيراً لا أبا لكمو ! قد ضلّ من كانت العميان تهديه !

لهذا نجد القرآن يذكر العلم مرشحاً لمنصب الخلافة فى الأرض فى قصة آدم ، كما ذكرنا من قبل : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ (١) الآيات .

ووجدنا فى قصة طالوت كيف كان العلم أحد مؤهلاته الأساسية للقيادة العسكرية ، نقرأ ذلك فى قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلِكِ مِنْ بَنِي إِسْرَآئِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّ لَّهُمْ أِبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ إلى أن قال تعالى : ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ، قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ ، قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ﴾ (٢) .

فهؤلاء القوم من بنى إسرائيل هم الذين قالوا لنبيهم : ﴿ اِبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ ، أى هم الذين طلبوا ذلك ورغبوا فيه ، فلما حقق الله لهم

(٢) البقرة : ٢٤٦ - ٢٤٧

(١) البقرة : ٣١ وما بعدها .

ما طلبوا وعيّن لهم نبيهم الملك المنشود بوحي من الله ، ظهرت طبيعتهم النكدة المعاندة ، وقالوا معترضين : ﴿ أَتَىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ ﴾ ، لأننا نملك المال الكثير وهو لم يؤت إلا القليل ؟ كأن المناصب الكبيرة فى الأمة لمن يملك الدرهم والدينار ، لا لمن يملك البصيرة والاعتبار ، وكأن الفقراء يجب أن يُحرّموا من كل مزية ، ولو كانوا من ذوى المواهب والملكات !

وهنا كان رد نبيهم : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ﴾ . و « العلم » هنا يدخل فيه - بصفة أولية - العلم بالشؤون العسكرية التى تتطلبها إدارة المعارك ، كما أن « البسطة فى الجسم » مطلوبة هنا أيضاً ، حتى يكون فى مقدمة رجاله وجنوده ، تحملاً لأعباء الحرب ، وصبراً على لأوائها ، ويكون منظره نفسه مهيباً ومرهباً لأعدائه .

ذكر البقاعى فى تفسير : ﴿ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ ﴾ : « أى الذى تحصل به المكنة فى التدبير والنفاذ فى كل أمر ، وهو يدل على اشتراط العلم فى الملك وفى تقديم العلم على الجسم دليل على أن الفضائل النفسانية أشرف من الجسمانية وغيرها » (١) .

ووجدنا فى قصة يوسف الصديق عليه السلام كيف جعل العلم أحد وصفين رئيسين يؤهلانه للمنصب الذى طلبه من الملك ، بعد أن ظهرت براءته ، وعلت درجته ، وظهر علمه فى تأويل رؤيا الملك بما لم يكن فى الحسبان : ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ اتُّونِي بِهِ اسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي ، فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ ، إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿ (٢) .

فحين أفصح الملك عن منزلة يوسف لديه ، وأنه ﴿ مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾ رأى يوسف أن واجبه أن يتولى مسؤولية إدارة الأزمة التى أشار إليها فى تعبير الحلم

الملكى : أزمة المجاعة التى تطوّق البلاد ، والسنين الخصبه والسنين العجاف ، وليس هناك أولى منه بتولى أمرها ، وقيادة سفيتها .

وفى هذا دليل على جواز طلب المنصب إذا تعين الطالب للقيام به ، لأن الفرار منه فى ذلك الحين فرار من المعركة ، وهرب من الواجب الذى لا يؤديه غيره .

لهذا قال يوسف : ﴿ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ ، إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ ، وخزائن الأرض فى ذلك الوقت تشمل ما يتعلق بالمالية والاقتصاد والزراعة والتموين والتخطيط .

وعبارة : ﴿ حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ تعنى صفتين لا غنى عنهما فى أى منصب : فالحفظ يعنى « الأمانة » التى بها تُحفظ الحقوق والأموال وتُصان ولا تُهَب ولا تُسرق ، ولا تعرض للضياع .

والعلم يعنى « الخبرة » والكفاية فيما يُسند إليه ، بحيث يستطيع أن يعرف مداخل الأمر ومخارجه ، ولا يكون مجرد أداة فى يد غيره من العارفين والخبراء .

وهاتان الصفتان اللتان ذكرهما يوسف عليه السلام هنا ، شبيهتان بالصفتين اللتين ذكرتهما بعد ذلك ابنة الشيخ الكبير من أهل مَدْيَن فى قصة موسى عليه السلام ، بعد أن سقى لها ولأختها غنمهما ، وأرسلها أبوها فى طلبه ، فقالت إحداهما : ﴿ يَا أَبَتِ اسْتَجِرَّهُ ، إِنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتَجَرْتَ الْقَوَى الْأَمِينُ ﴾ (١) .

فصفة « القوى » هنا مقابل صفة « العليم » فى قول يوسف ، وصفة « الأمين » مقابل صفة « الحفيظ » فى قوله عليه السلام .

ولا بد من الصفتين معاً ، كما وضح ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية فى كتابه « السياسة الشرعية » .

* * *

ذم كل أمر قام على غير علم

ومن فضل العلم فى القرآن : أنه أنكر أبلغ الإنكار ، وذمَّ أشد الذم : كل أمر من قول أو عمل ، قام على غير علم .

● الجدل بغير علم :

من ذلك : الجدل بغير علم ، وخصوصاً فى شأن العقيدة فى الله . قال تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ ﴾ (١) .
﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴾ (٢) .

ويبدو من السياق هنا : أن العلم فى الآية هو العلم العقلى بدليل عطف الهدى والكتاب المنير عليه . والعطف يقتضى المغايرة ، فليس عند هؤلاء المجادلين فى الله علم من عقل ، ولا دليل من نقل .

ونظير هذا قوله تعالى فى محاجة اليهود والنصارى فى شأن إبراهيم عليه السلام ، وادعاء اليهود أنه كان يهودياً ، والنصارى أنه كان نصرانياً : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ * هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ * مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (٣) .

* *

(٢) الحج : ٨ ، ولقمان : ٢٠

(١) الحج : ٣

(٣) آل عمران : ٦٥ - ٦٧

● الخوض فى الأعراض بغير علم :

ومن ذلك : الخوض فى أعراض الناس بغير علم ، وإطلاق الألسنة كأنها أنياب أو مخالب تنهش فى حرمان المؤمنين والمؤمنات بغير بينة ، كما وقع فى حديث الإفك ، وتناول عرض أم المؤمنين ، الصديقة بنت الصديق عائشة رضى الله عنها ، ورجل فاضل من أصحاب النبى ﷺ ، من ألسنة السوء . يقول تعالى : ﴿ وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ * إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسِبُونَهُ هينًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴾ (١) .

* *

● دعوى الجبرية بغير علم :

ومن ذلك : دعوى « الجبرية » ومضمونها أن ما هم فيه من شرك وضلال ليس من سوء اختيارهم وصنيع أيديهم ، بل هو مما شاء الله لهم ، يعنون المشيئة الملجئة المجبرة ، التى لا تدع لهم حرية الإرادة ، ولا قابلية الاختيار . وفى هذا يقول القرآن عن الأصنام والآلهة المزعومة لهم : ﴿ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ ، إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ (٢) .

وفى سورة أخرى يقول تعالى : ﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ ، كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا ، قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا ، إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴾ (٣) .

* *

(٣) الأنعام : ١٤٨

(٢) الزخرف : ٢٠

(١) النور : ١٤ ، ١٥

● دعوى التحريم والتحليل بغير علم :

ومن ذلك : دعوى التحريم والتحليل بغير علم ولا سلطان من الله تعالى ، الذى له وحده حق التحليل والتحريم الدينى لعباده ، فليس من شأن بشر أن يُحرّم أو يُحلّل ما شاء له هواه ، تحريماً وتحليلاً له الديمومة والصفة الدينية المطلقة . يقول تعالى معقباً على ما حرّم المشركون من الضأن والمعز : ﴿ قُلْ ءالذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ ، نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (١) . ثم يناقشهم هذه المناقشة نفسها فى شأن الإبل والبقر ، ثم يقول : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً لِّيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (٢) .

ويقول تعالى عن ضلال العرب فى الجاهلية ، وكيف أحلّوا الحرام المحض ، وحرّموا الحلال الصرّف ، سفهاً بغير علم ، وافتراءً على الله بغير حق : ﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ ، قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾ (٣) .

وقد بين القرآن قبل ذلك كيف زين لهم شياطينهم قتل أولادهم وفلذات أكبادهم ، فقال تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ زَيْنَ لَكثيرَ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ﴾ (٤) .

وهذا كله منشؤه اتباع الهوى ، وترك العلم ، ولهذا قال تعالى فى هذه السورة نفسها ، سورة الأنعام : ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا لِّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ، إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴾ (٥) .

وهذا الإضلال لغيرهم إنما يتم بعد أن ضلّوا فى أنفسهم بغير علم أيضاً ،

(٣) الأنعام : ١٤٠

(٢) الأنعام : ١٤٤

(١) الأنعام : ١٤٣

(٥) الأنعام : ١١٩

(٤) الأنعام : ١٣٧

كما قال تعالى فى سورة أُخرى : ﴿ بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ
عِلْمٍ ، فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ ﴾ (١) .

* *

● الشِّركُ ضلالٌ بغير علم :

وما ذكرناه عن التحريم والتحليل بغير إذن من الله ، إنما هو فرع من أصل
كبير هو الشرك بالله تعالى ، الذى هو جرثومة كل شر ، وأصل كل انحراف
وفساد فى الفكر أو فى السلوك . وهذا الشِّركُ إنما هو - فى حقيقته -
قول أو اعتقاد بغير علم . كما قال تعالى : ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ
يُنْزَلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ ، وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ ﴾ (٢) .

وقال تعالى : ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ، وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ
وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ ﴾ (٣) .

وقد بيّن القرآن فى مواضع شتى أن الشرك لا يقوم على أى أساس من
علم أو سلطان ، ويعنى بالسلطان : الحجة والبرهان . كما قال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا
حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ
الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنْزَلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ
مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٤) .

وقال تعالى : ﴿ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا
تُطِعْهُمَا ، وَصَاحِبَهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾ (٥) .

وقال على لسان مؤمن آل فرعون : ﴿ وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى

(٣) الأنعام : ١٠٠

(٢) الحج : ٧١

(١) الروم : ٢٩

(٥) لقمان : ١٥

(٤) الأعراف : ٣٣

النَّجَاةَ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ * تَدْعُونَنِي لَأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ ﴿١﴾ .

وقال : ﴿ وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ ، إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴾ (٢) .

وقال فى شأن المشركين والنصارى الذين قالوا : اتخذ الله ولداً - المشركون جعلوا الملائكة بنات الله سبحانه ، والنصارى قالوا : المسيح ابن الله ، واليهود قالوا : عزير ابن الله - فقال تبارك وتعالى فى شأن الجميع : ﴿ وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا * مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ ، كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ، إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾ (٣) .

* *

● الإضلال عن سبيل الله بغير علم :

ومن ذلك : الإضلال عن سبيل الله بغير علم ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِ لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ، أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ (٤) .

ولقد بين القرآن أن هؤلاء المضللين يحملون أوزارهم كاملة يوم القيامة ، كما يحملون جزءاً من أوزار الذين ضلوا بسببهم . قال تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أُنْزِلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَصَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ * لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ، أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ ﴾ (٥) .

* *

(٣) الكهف : ٤ ، ٥

(٢) المؤمنون : ١١٧

(١) غافر : ٤١ ، ٤٢

(٥) النحل : ٢٤ ، ٢٥

(٤) لقمان : ٦

● ذم الجهالة والجاهلين :

وإذا كان القرآن قد نوه أبلغ التنويه بالعلم والعلماء ، فإنه في المقابل قد ذمَّ أبلغ الذم الجهالة والجاهلين .

* ذم الجاهلية :

ومن ذلك : ذم القرآن للجاهلية ، فاشتقاقها من هذه المادة « ج ه ل » وقد ذمَّ القرآن الكريم في أربعة مواضع :

ذم جاهلية العقيدة في قوله تعالى : ﴿ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ ﴾ (١) .

وذم جاهلية السلوك في مجال الأسرة في قوله : ﴿ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى ﴾ (٢) .

وذم جاهلية الأخلاق في مجال المجتمع في قوله : ﴿ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ الْحَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةَ ﴾ (٣) .

وذم جاهلية الحكم والسياسة في قوله : ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ، وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ (٤) .

*

* الإعراض عن الجاهلين :

ومن توجيهات القرآن المتكررة : الإعراض عن الجاهلين ، والترفع عن مقابلة جهلهم بمثله ، فهم أهون من أن يضيع العقلاء الوقت والجهد معهم .

(٢) الأحزاب : ٣٣

(١) آل عمران : ١٥٤

(٤) المائدة : ٥٠

(٣) الفتح : ٢٦

يقول تعالى لرسوله : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ
الْجَاهِلِينَ ﴾ (١) .

وقال عز وجل في وصف عباد الرحمن : ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ
قَالُوا سَلَامًا ﴾ (٢) .

وقال في وصف بعض عباد المؤمنين من أهل الكتاب : ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا
اللَّغْوَ عَرَّضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي
الْجَاهِلِينَ ﴾ (٣) .

* *

● من مظاهر الجهل فى القرآن :

والجهل الذى ذمّه القرآن له مظاهر شتى :

* الهزل فى موضع الجد :

منها : الهزل فى موضع الجد .

وهذا ما نلمسه فى قوله تعالى فى قصة موسى عليه السلام مع قومه :
﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً ، قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ، قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ
أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ (٤) .

فقد اتهمه بنو إسرائيل بأنه يمزح ويهزل ، وهو يتحدث عن الله تعالى وعن
أمره لهم ، بهذه الصيغة المؤكدة : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ ﴾ ، فكان رد موسى رداً
حاسماً يدل على أن مثل هذا لا يصدر إلا عن جاهل لا يعرف مقام ربه ،
ولا يقدره حق قدره . وهو يعوذ بالله أن يكون كذلك .

*

(٢) الفرقان : ٦٣

(١) الأعراف : ١٩٩

(٤) البقرة : ٦٧

(٣) القصص : ٥٥

* تغليب العاطفة على العقل :

ومنها : تغليب العاطفة على مقتضى العقل والحكمة .

وهذا ما نجده فى طلب نوح عليه السلام الشفاعة فى ابنه الذى كفر به وخالفه ، وأوى إلى جبل ظن أنه يعصمه من الماء ، فلم يعصمه شىء من أمر الله ، وابتلعه الموج وكان من المغرقين . غلبت عاطفة الأبوة على نوح ، وما كان ينبغى لها أن تغلب ، فكان ما حكاه القرآن : ﴿ وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴾ * قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ، إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ، فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ، إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ * قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ ، وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (١) .

وهكذا كان الرد الإلهي على شيخ الأنبياء شديداً ، فلم يسامحه ربه فى هذا الطلب ، وبيّن له أن نسب العقيدة فوق نسب الدم ، وأن هذا الولد الكافر العاق ليس من أهله وإن كان من صلبه ، وقال له بصريح العبارة : ﴿ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ .

*

* الجمود على الأفكار الضالة والسلوك المنحرف :

ومن أبرز مظاهر الجهل : الجمود على العقائد الباطلة ، والأفكار الضالة ، والسلوك المنحرف ، وسد الآذان عن سماع دعوة الحق التى يجىء بها رُسُلُ الله .
نقرأ فى قصة نوح عليه السلام حين طلبوا إليه أن يطرد الفقراء من أتباعه ، الذين يستنكفون أن يكونوا مثلهم فى المنزلة : رد نوح عليهم بقوله :

﴿ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا ، إِنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَأَيْتُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴾ (١) ، وإنما تتمثل جهالتهم فى النظر إلى الناس من خلال ما يملكون من مال ، لا ما يملكون من قيم وأخلاق !

ونقرأ فى قصة لوط مع قومه الذين شذوا عن الفطرة ، وأتوا الذكران من العالمين ، وتركوا ما خلق لهم ربهم من الأزواج قوله فى الإنكار عليهم : ﴿ أَتَنْكُمُ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّنْ دُونِ النِّسَاءِ ، بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ (٢) ، وأى جهالة أكبر من هذه الجهالة التى جعلت هؤلاء يدعون الطهارة ، ويغرقون فى القذارة ، ويتهكمون بلوط ومن معه : ﴿ إِنَّهُمْ أَُنَاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ ﴾ (٣) .

ونقرأ فى قصة هود مع قومه حين قالوا له : ﴿ أَجِئْتَنَا لَتَأْفِكَنَّا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ * قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَأَيْتُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴾ (٤) .

وإنما جهالتهم فى استعجالهم عذاب الله الذى توعدّهم رسولهم به ، وكان أولى بهم أن ينظروا فى رسالته بتأمل وإنصاف ، وقد بين أنه لهم ناصح أمين ، وأنه لا يبغي منهم مالاً ولا أجراً ، إن أجره إلا على الله .

وفى قصة موسى عليه السلام لم يكذب ينجو هو وقومه من فرعون وملئه وجنوده ، حتى سأله قومه من بنى إسرائيل سؤالاً غريباً ، لا يدل على شىء إلا على استحكام الجهل لدى سائله ، يقول تعالى : ﴿ وَجَاوَزْنَا بَيْنَىٰ إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَهُمْ ، قَالُوا يَا مُوسَىٰ

(٢) النمل : ٥٥

(١) هود : ٢٩

(٤) الأحقاف : ٢٢ ، ٢٣

(٣) النمل : ٥٦

اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمُ آلِهَةٌ ، قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ * إِنَّ هَؤُلَاءِ مَتَّبِعُونَ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١﴾ .

وَأى جهل أعظم من نسيان فضل الله عليهم ، الذى أنجاهم من جبروت فرعون ، وسؤالهم أن يجعل لهم إلهاً أو صنماً غير الله تعالى يعبدونه ، كما يفعل أولئك القوم الوثنيون ؟؟ وأقدامهم لم تكد تجف من البحر الذى خرجوا منه .

وفى حديث القرآن عن المشركين الذين بُعث إليهم محمد ﷺ ، وتعتهم فى طلب الخوارق ، وعجائب الآيات ، يقول تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لَيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ ﴾ (٢) .

* *

● معصية الله من دلائل الجهل ولوازمه :

وما أرشد إليه القرآن : أن معصية الله تعالى من دلائل الجهل ولوازمه التى لا تنفك عنه ، ولا ينفك عنها ، فكل من عصى الله تعالى بمخالفة أمره ، أو ارتكاب نهيهِ ، فهو لا محالة جاهل : جهل مقام ربه ، وجهل قيمة نفسه ، وجهل أمر آخرته ، وأثر اللذة العاجلة على المثوبة الآجلة ، وقدّم حظ النفس على حق الرب ، وغلب باعث الهوى على باعث الدين والحق . ولا يقدم على هذا إلا جاهل غبى ، لا عالم ذكى .

من أجل هذا لازم القرآن بين عمل السوء والجهالة ، فقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ (٣) .

(٣) النساء : ١٧

(٢) الأنعام : ١١١

(١) الأعراف : ١٣٨ ، ١٣٩

وقال سبحانه : ﴿ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءاً بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (١) .

وقال : ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (٢) .

قال ابن عباس رضى الله عنهما : ذنب المؤمن جهل منه .

وقال قتادة : أجمع أصحاب رسول الله ﷺ : أن كل شيء عصى الله فيه فهو جهالة .

وقال السدي : كل من عصى الله فهو جاهل .

وقال سفيان الثوري : كل من عمل ذنباً من خلق الله فهو جاهل ، كان جاهلاً أو عالماً . إن كان عالماً فمن أجهل منه ؟ وإن كان جاهلاً فمثل ذلك .

وقد نقلنا عن ابن القيم قوله : « ويدل على صحة هذا : أنه مع كمال العلم لا تصدر المعصية من العبد ، فإنه لو رأى صبيّاً يتطلع عليه من كوة لم تتحرك جوارحه لمواقعة الفاحشة ، فكيف يقع منه حال كمال العلم بنظر الله إليه ، ورؤيته له ، وعقابه على الذنب ، وتحريمه له ، وسوء عاقبته ؟ ! فلا بد من غفلة القلب عن هذا العلم وغيبته عنه . فحينئذ يكون وقوعه فى المعصية صادراً عن جهل وغفلة ونسيان مضاد للعلم . والذنب محفوف بجهلين : جهل بحقيقة الأسباب الصارفة عنه . وجهل بحقيقة المفسدة المترتبة عليه ، وكل واحد من الجهلين تحته جهالات كثيرة . فما عصى الله إلا بالجهل ، وما أُطيع إلا بالعلم » (٣) .

✱ ✱

(٢) النحل : ١١٩

(١) الأنعام : ٥٤

(٣) مفتاح دار السعادة : ٩٠ / ١

• الجهل المركَّب :

وشر أنواع الجهل هو : الجهل المركَّب ، وهو الذى يجهل صاحبه أنه يجهل ، لأنه لا يسعى إلى التعلم ، وهو يعتقد فى نفسه أنه عالم .

ولهذا سئل بعض العارفين : ما شر ما يُصاب به الإنسان ؟ فقال : الجهل بالله تعالى . فقليل له : وهل هناك شر من هذا ؟ قال : نعم ، الجهل بالجهل ! وفى هذا يقول الشاعر :

إذا كنت لا تدري بأنك جاهل فمن لى بأن تدرى بأنك لا تدرى ؟!
ويقول الخليل بن أحمد : « الناس أربعة : رجل يدرى ، ويدرى أنه يدرى ، فهذا عالم فاتبعوه .

ورجل يدرى ، ولا يدرى أنه يدرى ، فهذا نائم فأيقظوه .
ورجل لا يدرى ، ويدرى أنه لا يدرى ، فهذا جاهل فعلموه .
ورجل لا يدرى ، ولا يدرى أنه لا يدرى ، فهذا ضال فارفضوه » .

وقد وصف القرآن المنافقين بهذا النوع من الجهل ، حين قال فى شأنهم :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ *
أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ
النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ ، أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ
وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴾ (١) .

كما وصف القرآن بعض أصناف الكفار بهذا الجهل فى قوله تعالى : ﴿ قُلْ
هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا * الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ
يَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ (٢) .

(١) البقرة : ١١ - ١٣

(٢) الكهف : ١٠٣ ، ١٠٤

وقال تعالى : ﴿ أَفَمَن زِينَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا ، فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ ﴾ (١) .

ومن أجل ذلك كان المبتدع شراً من العاصي ، وكانت البدعة شراً من المعصية ؛ لأن العاصي يعلم أنه عاص لربه ، مخالف لأمره ، فيرجى أن يتوب . أما المبتدع فهو يتقرب إلى الله ببدعته ، فكيف يرجى أن يتوب منها ؟ وهذا هو الخطر .

* * *

العلم المذموم فى القرآن

• العلم الذى يضر ولا ينفع « السحر » :

العلم المذموم فى القرآن يأخذ عدة صور ، أُولاهَا : العلم الضار .
فقد وجَّه القرآن « الطاقة العقلية » لدى الإنسان إلى تحصيل العلوم النافعة ،
والمعارف المفيدة له وللمجتمع من حوله ، وحفزه على طلب العلم النافع
بأعظم الحوافز المرغبة والمرهبة والباعثة .

ولم يقبل أن تُوجَّه هذه الطاقة إلى العلوم التى لا تحنئ من ورائها ثمرة
للفرد ولا للأمة . وذلك مثل « علم السحر » .

بل بيّن القرآن : أن تعلم هذا العلم يضر ولا ينفع ، فشأنه أن يُستخدم فى
الإفساد وتقطيع الروابط بين الناس ، كالتفريق بين المرء وزوجه ، وهو مما
يغضه الله تعالى ، ويحبه الشيطان ، ولهذا كان من كبائر الإثم .

عرض القرآن لهذه القضية فى قصة هاروت وماروت فى سورة البقرة ،
فقال تعالى فى شأن اليهود وما ارتكبه من ألوان الانحراف والفساد :

﴿ وَاتَّبِعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكٍ سُلَيْمَانَ ، وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ
وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السَّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ
هَارُوتَ وَمَارُوتَ ، وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا
تَكْفُرْ ، فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ، وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ
بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ ، وَلَقَدْ عَلَّمُوا
لِمَنْ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ ، وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ ، لَوْ
كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ (١)

ولقد اختلف علماء المسلمين فى حقيقة السحر ما هى : أهو أمر حقيقى مؤثر فى الواقع ؟ أم هو مجرد إيهام وتخيل وسحر للأعين فحسب ؟

ذهب المعتزلة إلى الثانى ، مستدلّين بما جاء فى القرآن فى قصة موسى وسحرة فرعون ، كما فى قوله تعالى : ﴿ قَالَ أَلْقُوا ، فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴾ (١) .
﴿ قَالَ بَلْ أَلْقُوا ، فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيَّهُمْ تُخِيلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى ﴾ (٢) .

وذهب أهل السنة إلى الرأى الأول ، وأن للسحر حقيقة ، وأن له تأثيراً ، ولهذا قال تعالى : ﴿ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ﴾ (٣) ، وقال : ﴿ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ ﴾ (٤)

ولهذا أيضاً أمرنا بالاستعاذة من شر السحرة الذين ينفثون فى العُقد ، فقال تعالى : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴾ من شرّ ما خلق * ومن شرّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ * ومن شرّ النَّفَّاثَاتِ فى الْعُقَدِ ﴾ (٥) .

وأيّاً كانت ماهية السحر وحقيقته ، فهو علم يضر ولا ينفع ، ولا يجوز للمسلم تضييع وقته وجهده فى تعلمه . فما أحوج هذا الجهد وهذا الوقت أن يُنفقا فى تحصيل ما ينفع من العلم .

* *

● التنجيم شُعبة من السحر :

وقد ورد فى الحديث النبوى اعتبار « التنجيم » شُعبة من السحر ، وهو الذى يقوم على التنبؤ بالغيب بواسطة النجوم ، وادعاء قراءة المستقبل من خلالها .

(٣) البقرة : ١٠٢

(٢) طه : ٦٦

(١) الأعراف : ١١٦

(٥) الفلق : ١ - ٤

(٤) البقرة : ١٠٢

فقد روى ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال : « مَنْ اقْتَبَسَ علماً من النجوم اقْتَبَسَ شُعْبَةً من السحر ، زاد ما زاد » (١) .

قال الإمام الخطابي في « معالم السنن » : « علم النجوم المنهى عنه هو : ما يدعيه أهل التنجيم من علم الكوائن والحوادث التي لم تقع ، وستقع في مستقبل الزمان ، كإخبارهم بأوقات هبوب الرياح ، ومجيء المطر ، وظهور الحر والبرد ، وتغير الأسعار ، وما كان في معانيها من الأمور ، يزعمون أنهم يدركون معرفتها بسير الكواكب في مجاريها ، وباجتماعها واقتترانها ، ويدعون لها تأثيراً في السفليات ، وأنها تتصرف على أحكامها ، وتجري على قضايا موجباتها .

وهذا منهم تحكم على الغيب وتعاطٍ لعلم استأثر الله سبحانه به . لا يعلم الغيب أحد سواه .

فأما علم النجوم الذي يدرك من طريق المشاهدة والحس ، كالذي يُعرف به الزوال ، ويُعلم به جهة القبلة . فإنه غير داخل فيما نهى عنه .

وذلك : أن معرفة رَصْدِ الظل ليس شيئاً بأكثر من أن الظل ما دام متناقصاً فالشمس بعد صاعدة نحو وسط السماء من الأفق الشرقي . وإذا أخذ في الزيادة فالشمس هابطة من وسط السماء نحو الأفق الغربي .

وهذا علم يصح دَرَكُهُ من جهة المشاهدة ، إلا أن أهل هذه الصناعة قد دبروه بما اتخذوا له من الآلة التي يستغنى الناظر فيها عن مراعاة مدته ومراصده .

وأما ما يُستدل به من جهة النجوم على جهة القبلة : فإنما هي كواكب

(١) رواه الإمام أحمد في مسند ابن عباس برقم (٢٠٠٠) وقال الشيخ شاکر : إسناده صحيح ، وأبو داود في الطب (٣٩٠٥) ، وابن ماجه في الأدب (٣٧٢٦) ، وصححه النووي في « رياض الصالحين » ، والذهبي في « الكبائر » . انظر : « فيض القدير » (٨٠/٦) .

أرصدها أهل الخبرة بها من الأئمة الذين لا نشك في عنايتهم بأمر الدين ومعرفتهم بها ، وصدقهم فيما أخبروا به عنها . مثل أن يشاهدوها بحضرة الكعبة ، ويشاهدوها في حال الغيبة عنها فكان إدراكهم : الدلالة عنها بالمعينة . وإدراكنا لذلك بقبولنا خبرهم ، إذ كانوا غير متهمين في دينهم ، ولا مقصرين في معرفتهم » (١) .

ولا يدخل في علم « التنجيم » هذا : ما يُذاع في نشرات الأخبار من هيئات الأرصاد الجوية في الأقطار المختلفة ، من توقع حركة الرياح ، ونزول الأمطار أو عدمها ، ودرجات الحرارة والبرودة ، ونحو ذلك ، لأن هذا ليس من التنبؤ بالغيب المطلق ، الذى لا يعلمه إلا الله تعالى ، بل هو مبنى على مشاهدات وتجارب معروفة ، مبنية على سنن الله فى الكون ، وشبكه الأسباب والمسببات . وينبغى أن يكون ذلك على سبيل التوقع ، لا على سبيل الجزم والقطع ، فقد يُحدث الله تعالى ما ليس فى الحسبان . ولهذا يختم كثير من المؤمنين من مقدمى نشرات الأخبار الجوية حديثهم بقولهم : هذا والعلم عند الله تعالى .

فهذا ليس من عمل المنجمين الذين قيل فيهم : « كذب المنجمون ولو صدقوا » !

وكذلك ليس من علم التنجيم ولا من عمل المنجمين : ما يتعلق بـ « علم الفلك » الذى كان للمسلمين فيه يد طويلة ، أيام ازدهار الحضارة الإسلامية ، والذى استبحر فى عصرنا ، ووصل إلى غاية من الدقة حتى سمعت من بعض علمائه : أن احتمال الخطأ فيه ١ : ١٠٠.٠٠٠ (واحد إلى مائة ألف) من الثانية ، وعلى أساسه وصل الإنسان إلى القمر ، وغزا الكواكب .

(١) انظر : معالم السنن للخطابى ، مع مختصر المنذرى وتهذيب ابن القيم - فى شرح الحديث (٣٧٥٤) : ٣٧١/٥ ، ٣٧٢ - طبعة المكتبة الأثرية بباكستان ، المصورة عن طبعة السُّنَّة المحمدية بالقاهرة .

والقرآن الكريم يشير إلى هذا العلم فى قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِّينَ وَالْحِسَابَ ، مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ ، يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ (١) .

أعتقد أن القوم « الذين يعلمون » هنا ، والذين فصل الله لهم الآيات : هم الذين يعلمون علم الفلك .

ويؤيد ذلك قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِى ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ، قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ (٢) .

وقال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ ، فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضلاً مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِّينَ وَالْحِسَابَ ﴾ (٣) .

* *

• العلم الذى يكتمه صاحبه عن أهله :

وهناك صور أخرى للعلم الذى ذمّه القرآن ، وذمّ أهله . منها :

صورة العلم الذى يكتمه صاحبه عن أهله ، كما قال تعالى عن أهل الكتاب : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنَهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً ، فَبُئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴾ (٤) ..

وقال سبحانه فى شأن اليهود : ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ، وَإِنَّ فَرِيقاً مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (٥) .

(٣) الإسراء : ١٢

(٢) الأنعام : ٩٧

(١) يونس : ٥

(٥) البقرة : ١٤٦

(٤) آل عمران : ١٨٧

وقال عز وجل : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ
بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴾ *
إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنَّاهُ فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ، وَأَنَا التَّوَّابُ
الرَّحِيمُ ﴿ (١) .

* *

● العلم الذى لا يعمل به صاحبه :

صورة العلم الذى لا يعمل به صاحبه ، ولا يؤثر فى توجهه وسلوكه ، بل
يعمل بعكسه ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا
فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾ * وكو شئنا لرفعناه بها
ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه ، فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه
يلهث أو تتركه يلهث ، ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا ، فاقصص
القصص لعلهم يتفكرون ﴿ (٢) .

فانظر كيف صور القرآن هذا النموذج ، الذى يؤتى آيات الله ، فينسلخ
منها ، هكذا كما ينسلخ الحيوان من جلده ، فيبقى مكشوفاً ، أو كما ينسلخ
الإنسان من ثوبه ، فيصبح عارياً مفضوحاً ، وكان يمكن أن ترتفع به آيات الله
التي عنده وأن ترقى به ويرقى بها إلى القمة ، ولكنه هبط إلى أسفل ، إلى
الطين ، وأخلد إلى الأرض ، واتبع داعية الهوى لا داعية الدين والحكمة .

* *

● العلم المادى الذى يعارض علم النبوة :

صورة العلم المادى الذى يغتر به صاحبه ، ويحجبه عن الإيمان بالوحي ،
واتباع الرُّسل ، فيهلك مع الهالكين .

(٢) الأعراف : ١٧٥ ، ١٧٦

(١) البقرة : ١٥٩ ، ١٦٠

وفى هذا جاء قول الله تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَأَثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَعْنَى عَنْهُمْ مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ * فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿ (١) .

ففرح هؤلاء بما عندهم من العلم المادى أعماهم عن علم النبوة وأنوار الوحي ، واستهزأوا به ، فحاق بهم عاقبة استهزائهم .

* *

● العلم بظاهر الحياة الدنيا مع الغفلة عن الآخرة :

صورة العلم الذى يشغل صاحبه بظاهر الحياة الدنيا ، وينسيه الدار الآخرة ، وهذا العلم اعتبره القرآن كلا علم ، أى اعتبره جهلاً ، قال تعالى : ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ * يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴿ (٢) .

فانظر - يارعاك الله - كيف وصفهم بأنهم لا يعلمون . ثم أثبت لهم أنهم يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا ، مع الغفلة التامة عن الآخرة ، ليدلنا أن هذا العلم والعدم سواء .

* *

● العلم الذى يغى صاحبه بالثروة أو السلطة :

ومن ذلك : العلم الذى يغى صاحبه بما أوتى من مال وثروة ، وينسى فضل الله عليه ، الذى رزقه هذا المال ، وسخره لمنفعته .

وذلك مثل قارون الذى آتاه الله من الكنوز ما آتاه ، ونصحه قومه جملة

(٢) الروم : ٦ ، ٧

(١) غافر : ٨٢ ، ٨٣

نصائح ثمينة ليعمل بها في نفسه وماله ، ولكنه ﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي ﴾ (١) .

وكان تعقيب القرآن عليه : ﴿ أَوْ لَمْ يَعْلَمِ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ﴾ (٢) ؛ يعنى : ألم يصل إلى علمه الذى يدّعيه ما حدث للقرون من قبله وما نزل بهم من عذاب الله وبأسه ، حتى هلكوا وبادوا ، وقد كانوا أشد منه قوة وأكثر عددا ؟!

* *

● العلم الذى يؤدى إلى اختلاف الكلمة بغياً بين أهله :

ومن ذلك : العلم الذى يؤدى بأهله إلى أن تختلف كلمتهم ، ويتفرق صفهم ، الذى كان واحداً ، مثل بنى إسرائيل الذين آتاهم الله الكتاب والحكم والنبوة ، ولكن العلم الذى آتاهم الله لم يجمع كلمتهم ، وإنما اختلفوا من بعده ، بغياً بينهم وتحاسداً . يقول تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ وآتيناهم بينات من الأمر ، فما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم ، إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ (٣) .

ويقول سبحانه : ﴿ وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ، وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّفُضِيَ بَيْنَهُمْ ﴾ (٤) .
ويقول : ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ، وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ﴾ (٥) .

* * *

(٣) الجاثية : ١٦ ، ١٧

(٢) القصص : ٧٨

(١) القصص : ٧٨

(٥) آل عمران : ١٩

(٤) الشورى : ١٤